ماجد سليمان

خَان جلَيلة

عَودةُ أبي النجاة النجديّ

رواية

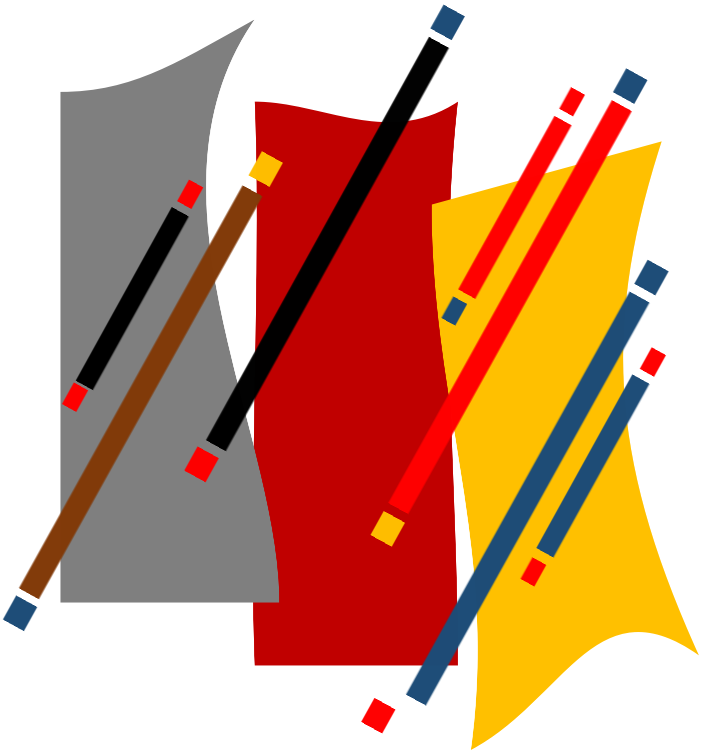

2023

ماجد سليمان

خَان جَليلة

عَودةُ أبي النَّجاة النجديّ

الإنتاج الإبداعي للكاتب:

- **عينٌ حمئة** (رواية) طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن ٢٠١١م.
- **دمٌ يترقرق بين العمائم واللحى** (رواية) مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٣م.
- **طيور العتمة** (رواية) دار الساقي، بيروت ٢٠١٤م.
- **نسوة السوق العتيق** (سيرة روائية) نشر ذاتي ٢٠٢٠م.
- **وليمةٌ لذئاب شَرِهة** (مسرحيّة) أدبي تبوك ٢٠١٦م.
- **شرق الأرض، غرب البحر** (مسرحيّة) أدبي الجوف ٢٠١٨م.
- **رأس بين مطرقتين** (مسرحية) نشر ذاتي ٢٠٢٢م.
- **الآباء** (مسرحية للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م.
- **نجمٌ نابضٌ في التراب** (قصص) أدبي الجوف ٢٠١٣م.
- **ما روته كاميليا** (حكايات) أدبي الرياض ٢٠١٩م.
- **الصندوق** (قصة للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م.
- **ليلُ القبيلة الظّاعنة** (ملحمة) أدبي الحدود الشمالية ٢٠١٩م.
- **قبّعةٌ تطير في الرّيح** (قصائد ونثائر) أدبي المدينة المنورة ٢٠١٤م.
- **ملاذ أخضر** (شعر محكي) نشر ذاتي ٢٠٠٨م.
- **أجراس** (قصيدة للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م.
- **٢٣ أبريل** (مقالات) نشر ذاتي ٢٠١٥م.
- **صهيل القوافي** (مختارات) نشر ذاتي ٢٠٠٣م.
- **نزف الشعراء** (شوارد) نشر ذاتي ٢٠٠٤م.
- **شعراء من عائلتي** (مطويّة) نشر ذاتي ٢٠٠٧م.

ماجد سليمان

خَان جلَيلة

عَودةُ أبي النَّجاة النجديّ

رواية

خان جليلة؛ عودة أبي النجاة النجدي

ماجد سليمان (السعودية)

Majed suleiman

تصنيف الكتاب: روايـــة

عدد الصفحات: ١٥٨

القياس: ١٤ × ٢١

تصميم الغلاف والإشراف الفني: ماجد سليمان

الناشر: نشر ذاتي

تاريخ الإصدار: ٢٠٢٣م

لغة الكتاب: العربية

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع: ١٠٤٢٦ / ١٤٤٤

ردمك: ٨ - ٦٢٢٧ - ٠٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

عنوان الكاتب

majedsuleimann@gmail.com

إلى

رُوحِ جَدّي لأُمّي

عبد الرحمن، الذي عاش عظيماً في حياته

وبقي شُموخه مُضيئاً بعد رحيله.

م . س

تـنـويـه:

تدور أحداث مُتخيلة لأشخاصٍ مُتخيلين أيضاً في أماكن حقيقية من إقليم اليمامة في نـجد، وزمنٍ افتراضي هو منتصف القرن الحادي عشر الهجري.

هوامش

خان جليلة: أي (نُزُلُ جليلة) حَيٌّ كبير بمدينة حَجْر اليمامة (الرياض حالياً) هو اسم لامرأة من بني حنيفة أنشأت الخان لراحة القادمين من شرق الجزيرة لمكة المكرمة.

حَجْرُ اليمامة: بفتح الحاء وجيم ساكنة، عاصمة البلاد النجديّة، وأُمُّ قُراها ـ مدينة الرياض حالياً ـ محطة رئيسة على درب القوافل المتنقلة بين أقاليم الجزيرة العربية في تلك العهود. ذكر الأصفهاني في كتاب بلاد العرب: "حَجْرُ سُرَّةُ اليَمَامَةِ، وهِيَ مَنْزِلُ السُّلْطَان والجَمَاعَة".

جَوّ اليمامة: هي من مواطن قبيلة جديس وزرقاء اليمامة في نجد ـ مدينة السّيح حالياً ـ تبعد عن الرياض ٨٠ كيلو جنوب شرق.

عارض اليمامة: أو طويق، جبل في قلب إقليم اليمامة التاريخي، يمتد لما يقارب ٨٠٠ كيلو، على شكل قوس يتجه طرفاه نحو الغرب.

وادي حنيفة: نسبة إلى قبيلة بني حنيفة التي سكنت فيه قبل الإسلام، يمتد مسافة ١٢٠ كليو في وسط نجد من الشمال مائلاً قليلاً إلى الشرق.

سُوقُ حَجْرِ اليَمَامَة: من أسواق العرب في نجد، والتي يقصدها العرب للبيع والشراء وإلقاء القصائد.

سُوقُ الخِضْرِمَة: بكسر الخاء والراء، يقع في جَوّ اليمامة.

دار الإمارة: قصر الحُكم أو دار الولاية، مجلس وُلاة اليمامة وأمرائها.

جبلُ الدَّام: يُشرفُ على جَوِّ اليمامة ـ مدينة السّيح حالياً ـ من الناحية الجنوبية، وفي سفوحه الغربية تقع عيون الخَرج الغزيرة.

منفوحة: قرية نجدية مشهورة من نواحي اليمامة.

الفِلْج: يقع جنوب إقليم نجد ـ مدينة الأفلاج حالياً ـ وجاء في الأغاني للأصفهاني: "وبالفلج نخيل ومزارع وأنهار، وهو من قرى اليمامة، بينه وبين حَجْرٍ مسيرة عشرة مراحل".

التلاوة النجدية: مظهر قديم من مظاهر تلاوة القرآن الكريم يخص أهل نجد، وجدت سابقاً في المساجد الطينية، وتسمى "قراءة الشيبان" ويعد أهم ما تتميز به القراءة النجدية هي الطريقة الفطرية اللحنية الشجية السهلة دون تسرع أو تكلف.

عَلَى طَرِيقِ حَجرٍ مِن جَوّ

في الطريق إلى حَجْر دفعني سيدي الجديسي في جُوقة عبيده الذين اصطفاهم للبيع، وساقنا بصحبة النخاس إلى السوق، نحيلون خائرون، قاتمو البشرة، لنا أيدٍ متشققة، وأقدام يابسة، وعلى سواعدنا تتقاطع عروق عاشرها الجفاف طويلاً.

في ذيل قافلة الجديسي، المكونة من سبعة عشر بعيراً، ذات الصناديق والأحمال والبضائع، حُمِلنا مقيدين على سنامي بعيرين أدهمين عريضين، وكلما تمايل سنامهما تمايلنا متمالكين أعضاءنا كي لا يسقط أحدنا بسبب قوة القيود المستديرة على معاصم سواعدنا المدماة. كدت أسقط مرات عدة لولا استناد ذقني على كتف أحد العبيد أمامي، وسارت القافلة زمناً حتى أمر الجديسي أن يتوقفوا للراحة والطعام والاغتسال، وبقيتُ كالأخرس، تدور عيناي في كل اتجاه، فسمعت من معي يتهامسون بأصوات عجنها العار:

ـ سَنُباعُ إلى تاجرٍ نَجديّ.

ـ هُوَ أَهون علينا من آخرٍ يسقينا كؤوس فضاضته.

ـ سيبيعوننا لتجار القوافل لقاء أن نبقى أحياء.

ـ بل سيبيعوننا مقابل حفنة شعير.

ـ أو قبضة يد من تمر.

ـ وسيدوم نزيف أنفسنا.

ـ ولا خلاص نستبق إليه.

ـ لن نُغْسَل من درن العبودية.

ـ لا أحد يقايضنا على حريتنا.

ـ لمهْ؟

ـ لأن الصحراء قد غرست دستورها في نفوسنا التعبة.

ـ وهل خلصنا من ذل يلاحقنا؟

ـ لا . وقد يأخذونا إلى حصونهم المرعبة.

ـ وهل نجونا من عار يطوقنا؟

ـ لا . لأن الخوف مستيقظ فينا.

ـ وحريتنا بأي ثمن؟

ـ بلا ثمن.

عندها كانت حَجْر تلوح من قريب على أضواء مصابيحها المُتدلية من قناطر أبوابها الرفيعة، ومن دونها يتمازج عواء الذئاب التي تسير في

قطعان، وهي تعدو خلف الفرائس، وتقفز على رؤوس الهضاب، ومن خلفها يمتد رغاء الإبل في زرائبها الواقعة خارج سور حَجْر، وأصوات تجار القوافل والرعاة وهم جلوس حول نيرانهم يتجاذبون أحاديث السمر عن مسافرين لم يعودوا، وعن أسفار غاصت في بلاد بعيدة، ومن خلفهم يتكاثف الليل، حيث أخبية أقيمت خصيصاً لنساء يتجمعن حول جُوقة يقرعن الطبول، ويتغنين بالبطولات والحوادث الكبار، ويكررن أسماء العشاق والفرسان، وعن الحنين الذي يقضم نفوس كل النجديين، ومن حولهنّ صبايا يطلبن المزيد من الألحان، حتى يدهمهن الفجر ولم يرتوين مما هنّ فيه.

وغير بعيد تداعى إلى أسماعنا ضرب طبول ساخن في أثره غناء السامري النجديّ المفعم بالنشوة:

"يا وجودي يا علي ما على الدنيا دُوَام
عيني اللي فالبكا ما اخلفَت ميعادها
اسهرتني واسهرت من يبي حلو المنام
عيّت العين الشقيّه يزين رقادها".

سُوقُ حَجْر اليَمَامَة 1

دخلوا بنا حَجْراً من بوابتها الجنوبية المصنوعة من جذوع النخيل، فارتفع لحظتها صوت المؤذن من منارة المسجد الجامع، وساروا بنا في طريق طيني طويل، مخترقين حارات صغيرة، متوغلين في عتمة بدأت أنوار الفجر في تفتيتها، حتى غازلت أنوفنا رائحة البخور والدقيق المخبوز، فإذا نحن بباب سوق حَجْر ورنين عذب لمهباشٍ ينطلق من البيوت المجاورة، يتقطع مرَّة ويتواصل مرَّات، كانت أيد كثيرة تطحن حبوب الهيل أو القهوة بعد حمسها، توالت ضربات يد المهباش أفقياً وعمودياً، تراوحت بين هدوء وقوة كأنها تدون نغمات خاصة.

وما أن ابتسم الصباح حتى صَفَّنا في قلب السوق، بعد أن توافد الناس، وارتفعت أصوات الباعة، وتدافعت ركبان التجارة، وازداد الصخب والزحام فنادى بصوته القبيح مكّرراً:

ـ بالسعر الذي ترونه، بالسعر الذي ترونه.

ومضى يترقب القوافل الوالجة إلى ساحة السوق، لعله يظفر بدفعة جديدة، وحين كشف الصباح وجه الحياة الجليّ، وصل هودج عَرَّافة اليمامة، فاستبقنا كلنا ثم استدرنا حولها نسألها عن مصايرنا، فأشارت لخادمها الأسمر القصير الدميم، والذي كان في ثياب ناصعة البياض، وعمامة رمادية أحكمها على جمجمته بشكل لافت، فأناخ راحلتها وهبطت من هودجها، وبعد صمت سارت تجاه حوانيت العطارة يتبعها النخاس ونحن حوله لتقف في صمت مريب، ثم خطّت على التراب خطاً طويلاً مستقيماً وسكبت عليه الماء ثم أمرتنا:

ـ قِفُوا خلفه.

فدفعنا النخاس بشدة، فتدافعنا حتى اصطففنا خلف الخط الترابي الرطب، واتسعت حدقتا عينيها الكبيرتين، وراحت تحملق في وجوهنا الذابلة التَّعِبة ومقاسات أبداننا الذاوية، ثم ضغطت بسبابتها اليمنى صدر أوَّلنا قائلة:

ـ ستباع لتاجر أقمشة من العقيق.

وتابعَتْ ذلك على البقية:

ـ ستباع لرجل من حاشية الأمير.

فتقدمت إلى التالي:

ـ ستباع لسيدة من نساء الفِلْج.

وتقدمت إلى التالي:

ـ ستباع لشيخ من شيوخ منفوحة.

وتوقفت عند التالي:

ـ ستباع لرجل من شرطة جَوّ.

وحين جاء دوري توقفت قليلاً، ثم أخفضت يدها دون أن تشير إلي:

ـ وأنت!

نظرت في البقية وهم ينتظرون أين سيأخذني مصيري، فلكزتني بعصاها:

ـ ستباع لسيدة من فاضلات حَجْر.

وابتَسَمَت بفمٍ داكن اللثة متساوي الأسنان عدا اثنان مائلان على البقية، ولكزتني أخرى:

ـ وسيأتيك الخير في خدمتها ومن بعدها.

ثم صمتت قليلاً وضربت الأرض برأس عصاها المعقوفة، وعلقت عينيها في عينيّ:

ـ الحظ يركض خلفك.

وانخفض صوتها:

ـ الحظ يركض خلفك.

سألني العبد المقيد عن يساري:

ـ ما صنعتك؟

ـ ناسخ.

ـ ناسخ؟

ـ هي كذلك وأنت ما صنعتك؟

ـ حداد.

ثم سألت الذي بجانبه:

ـ حداد أيضاً.

ـ لا. أقوم على دبغ الجلود. (قال لي)

فاستدارت بقية الرؤوس وهم يُجيبون تباعاً:

ـ اسكافي.

ـ طَحّان.

ـ حمّال.

يومها، باع النخاس كل العبيد إلّاي، ففاح صدر الجديسي غيضاً، فالمساء غير بعيد ولم يبقَ من عبيده المُحضرين للبيع عداي، فأيقنت كل اليقين أني لن أُباع، لأن الحُرَّ لا يُباع، وأن الجديسي سيملّ الانتظار في السوق، ويتركني لحريتي أو يُعيدني معه إلى جَوّ.

ومع حلول العتمة بعد وقت طويل من الانتظار والعرض المُلح على العابرين لشرائي، وقف سيدي الجديسي أمام ناقته الفرعاء، المعقولة عند مدخل السوق، وفي عينيه بريق الفرح بالكسب من وراء بيعي، كنتُ حينها ناعساً متكئاً على باب حانوت الطحّان الخشبي، وفجأة حلّ قيدي آمراً:

ـ انهض.

ـ ما الأمر سيدي؟

ـ انهض وستعرف.

وقفت كالمتفاجئ بعد نعاس ثقيل، لحقت به وأنا أساوي ثيابي، وأتعثر لأُدخل قدميّ الضخمتين في نعليّ المتمزقين، وألحق بسيدي على عجل.

شعرت بالحرج من نظرات الباعة والمتجولين والعابرين وهي تخترقني وكأني عارٍ بلا أثواب أو مجدور مُعدٍ، في حين ظل سيدي يسرع في خطاه، حتى وقف ملاصقاً حوانيت بيع الدقيق والحبوب، يداه مضمومتان إلى بعضهما، وقد مالت رأسه على الحائط الطيني وعيناه تنظران يميناً كمن ينتظر موعداً تأخر صاحبه.

قدمت إليه سيدة نجدية عرفتها من هيئتها، بملامح جِديَّة، ترفع بيدها اليمنى مصباح الزيت، تتبعها اثنتان تبدوان من خدمها أو فتياتها، تلبس مِقْطَعاً أخضر من الحرير المطرز بالزري الذهبي، أحد الألبسة الشهيرة في نجد، يحيط به حزام ذهبي، وتضفي على رأسها خماراً أسود زاهياً، وكل واحدة من فتياتها تشدّ حول وجهها خماراً شديد السواد، فلا يبدو من وجهيهما سوى مقلتين لامعتين، وترتديان ثياباً فضفاضة، لم يتحدث معها سيدي طويلاً، فقد راح يقرأ لها من

قرطاسٍ ممزق الأطراف، وهي تنظر في الأرض وكأنها في تفكير عميق، ثم اتسعت دائرة الصمت وطالت عنق حيرتي.

التفتت إليه، والنسوة ينظرن من وراء كتفها بأعين غارقة في الأسئلة، وراحا يتحدثان مع بعضهما وهما يشيران إلي بأعينهما، فدنى من سمعي ما يدور بينه وتلك السيدة:

ـ يرعى الإبل؟

ـ يرْعى الإبل.

ـ ينقلُ الماء؟

ـ ينقلُ الماء إلى أيِّ مكانٍ تُريدين.

ـ يُجيدُ الحصاد؟

ـ يُجيدُ الحصاد بالتأكيد.

ـ قليلُ الطعام؟

ـ قليلُ الطعام أيضاً.

ـ عاصٍ أم مُطِيع؟

ـ عاصٍ في حالاتٍ قليلةٍ لكنه في غالب أمره مُطيع.

أشارَ إِليّ:

ـ وسترين منه ما يسرُّكِ.

ـ ما اسمُه؟

ـ أبو النجاة.

ـ جَميل، أأنت أَسْميتهُ أم جاء حاملاً اسْمَه؟

ـ جاء حاملاً اسْمَه.

ـ حتى لا أنسى، مِن أيِّ البلاد جلبْتَه؟

ـ مِن جَوّ اليمامة حين ندبني أميري إليها في الشتاء المنصرم، هو مقطوع النسب ومجهول الأهل، كنا وقت الغزوات قد استكثرنا من شراء العبيد، وأكثرهم من أسرى الغزو، فقد أُسر في غزوة قُرب جَوّ، حين كان يصنع النبال للفرسان، وسيق مع الغنائم، فبيع لي بدرهمين فضيين، ونباله بدرهم واحد، وبغلته بأربعة دراهم نحاسية، وعمل في خدمتي لشهور.

ـ يوم اشتريته، ما حجة الأول في بيعه عليك؟

ـ ينشغل عن أوامره بكثرة الخط والنسخ.

ـ وأي صنعة أو عملٍ يُجيد عن غير الخط والنسخ؟

ـ الزخرفة وسرعة الكتابة.

ـ سأشتريه منك بعشرين درهماً فضيّاً، هل تبيعهُ بهذا الثمن؟

سَكَت وأطال النَّظَر ثم أجاب بعد أن أومأ بنفاذ صبر:

ـ بِعْتُكِ إيَّاه بعشرين درهماً فضيّاً.

فأقبل علي مهرولاً وحلّ عمامتي وفك الخنجر مِن حزامي:

ـ اذْهَب يا أبا النجاة فَأَنْتَ خادمها من الليلة.

فدفعني من كتفي وسرت خلفهن، أردف حينها بجملة ساخرة لم أسمعها جيداً، وكأنه قال:
ـ اذهب لا رافقتك السلامة.
فشتمته بنظراتي غير أني لمْ أفه بجملة، ثم أسرعت في سيري خلف سيدتي إلى بيتها الواقع في خان جليلة، مُتابعاً الزخرفة الجصية البيضاء على سطوح البيوت، وأسفل منها قطرات ما بقي من مطر البارحة، تلمع تحت ضوء القمر، وهي تقطر من مزرايب قدر ذراع وذراعين، خشبية وأخرى من الجذوع المجوفة أو الحديد.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 1

في بيت سفَّانة الذي تحتله عشر حجرات، وفناء كبير منفصل بالإمكان الدوران فيه دورة تامة، كان كثير الشجر، وله أسقف بديعة جميلة ذات امتداد مستقيم من جذوع النخيل، ومحشوة فراغاتها بالجص والتبن المعجون بالطين، على جدران فنائه فتحات مربعة، وُضِعت عليها مصابيح كالأكواب قد مُلأت بالماء والزيت ليضيء من داخلها فتيل كالذهب، تتوسط البيت من الداخل أعمدة خشبية، كما تتابع تحتها قناطر ذوات نقوش مثلثة وخطوط، جدران حجراته مزينة بالزخرف النجدي، ورائحة البخور تفوح بسخاء من كل حجرة وركن زُيّن بقطع متباينة من حصير القش الكثيف، وفي حجرة الضيوف جذب عيني مهباش نحاسي مخروطي لامع قوي الصلابة ذو قاعدة سميكة تطيق الطحن والدق المتواصل والمتكرر من عصا المهباش المفلطحة الغليظة ذات الصلابة العالية.

كانت ثيابي فضفاضة مهلهلة، تعط برائحة الوبر، أشعث كنتُ، إلا أن ملامحي وبشرتي فتية، وفي نظراتي ضوء مغرٍ، لاحظت خجلي، فأمرت أن يُطهى لي الطعام، حتى لا يفترسني الجوع بعد الطريق الطويلة من جَوٍّ إلى حَجْر، وحين رأت القطع الكبير في نعالي، والفتوق التي ملأت ثيابي، أرسلت أسئلتها تِباعاً:

ـ لِمَ تلبس هذه الثياب الخلقة؟

ـ لا أملك غيرها.

ـ ولا عمامة؟

ـ ولا عمامة.

ـ أين أهلك؟

ـ طاردهم المرض حين كنت صغيراً.

ـ واختطفهم؟

ـ اختطف جُلهم، ولقي البقية حتفهم في الغزوات.

ـ والجديسي هذا، أما أصلح حالك وأنت في رِقّه؟

ـ لا . ولا أظنه كان سيفعل ذلك.

فأمرت فتيانها أن يذهبوا ويصلحوا قطع نعالي، وأن تُصنع لي أيضاً نعالاً جديداً، وأن تُقطع لي أثواب جديدة وعمامة قطنية صفراء داكنة،

وعصابة رأس من قماش مستطيل قطني بلون رماي، ثم قالت لي بصوت فيه فرط من العطف:

ـ ادخل واغتسل.

حينها نادت فتاها القريب وأمرته:

ـ جَهّز الماء، وقِف أنت عنده بضوء المصباح والمشط، وفور خروجه من الاغتسال، قُصَّ ما طال من شعره، ودرِّم ما برز من أظفاره.

ليلتها تناولت طعامي بصمت، وكان خبزاً ولبناً وتمراً، من فرط الجوع لم أُبقِ شيئاً حتى بان لمعان الطبق، ثم أخذتني إحدى فتياتها إلى حجرة في الركن الشرقي من الفناء، سمعت سيدتي سفَّانة تناديها سَعْدى، والتي تقيم مع الفتيات في حجرة صغيرة في نهاية البيت، وأشارت لي بمكان نومي، حجرة ضيقة تتسع لستة أشخاص، بنافذة صغيرة ذات حدود جصيّة مرسومة، وبساط أحمر سميك، وفراش مطوي في ركنها، اضطجعت على الفراش الذي بدا من رائحته أنه خيط من وبر الإبل، وضُوعِفَت حشوته من صوف الأغنام، حاولت أن أنام إلا أن حالة من الوحشة طافت حولي تلك الليلة.

كان نومي قصيراً، وفي لمعة الفجر، سِرْت إلى نافذة حجرتي، وفتحت مصراعيها الصغيرين، وطاف بصري في البيوت والطريق التي بدأ الفجر يمسح عليها بضوئه، فتسللت نسمات منعشة كثيفة البرودة أفسدها صوت طفل يبكي بلا انقطاع.

لكل من البيوت المجاورة فناء داخلي تتوجه إليه نوافذ وفتحات البيت، تحفها فرجات مثلثة لدخول الضوء والهواء المطلوب، كما تحجب الرؤية من الخارج.

أغلب البيوت النجدية لها بابان، باب لدخول الضيوف إلى حجرة الضيافة، والباب الثاني يفتح على الفناء لدخول أصحاب البيت ومن في مكانتهم، وأمام البيت مجلس خارجي صغير بُني من الحجارة والطين تحفه أشجار متوسطة الطول بمثابة حواجز للغبار.

سمعت صوت سيدتي وفتاتين في الفناء، يتناوبن على العجين وطحن الإقط، وإفراغ التمر من نواه، شعرت بجلدي جافاً وبطني خاوية، رأيت الفتاتين تسندان الفُرُشَ على جنبات الفناء، وإذا بأصوات عند باب سيدتي حيث شجار قد نشب بين اثنتين من البائعات اللواتي ينادين على البضائع المتنقلة، وجذبت كل منهما ثياب الأخرى، فانطلقت سيدتي وخلفها فتياتها وفتيانها، وفضّت الشجار، وأصلحت بينهما.

انفرج مصراع باب حجرتي نصف انفراجة، وأشرقت سَعْدَى، وكأنها كانت تنتظر أن أستيقظ، يحيط بوجهها خمار رقيق شديد السواد، فرأيت في بياض وجهها أعوام اللهفة والهوى، بادلتني نظرات باسمة مشتاقة، وقالت:

ـ أبا النجاة.

- . . . . . .

- أهلاً بك في بيت سيدتي.

- وأهلا بك أنتِ.

- انهض الآن لتبدأ العمل.

حين خرجت من حجرتي رأيت تنوراً واسع الفم تجاوره أسطوانات خشبية لرقّ العجين من أجل خبزه على هيئة أقراص، ومن الجهة المقابلة داخل مطبخ صغير صُفت جرار حفظ الزيت بجانب قدور من الفخار لها أغطية محكمة لإنضاج الطعام، عُلّقت فوقها ملاعق خشبية بمقاسات متنوعة لتحريك الطعام في أواني الطبخ.

وفي الركن طاحونة من حجرين دائريين سميكين يلعو أحدهما الآخر حيث القطعة العليا متحركة في قلبها ثقب لوضع الحبوب وطحنها، يقابلها منخل ذو دوائر خشبية أسطوانية، وفتحات قعره ضيقة لنخل الطحين وتخليصه من الشوائب قبل عجنه، وبقربه أطباق منسوجة من القش والسعف بألوان جميلة.

وللمطبخ فتحتان في السقف لخروج الدخان، وعن جانبه حوض للحطب تقابله أعواد لتعليق الأدوات وحقائب حديدية مختلفة الأحجام لأغراض البيت.

*

في الأيام الأولى رأيت سيدة في منتهى الفضل، كريمة العطاء، متلهفة للعلم، تقرأ الكتب، وتحفظ المتون والشعر، وتنظر إلى فتيانها وفتياتها أنهم أبناء لا خدم، وفهمت حينها أن من يعمل في خدمتها لا يفارقها البتة، فحمدت الله أن الجديسي باعني إليها، وأراحني من العمل في تجارته.

صرت بحلول الفجر أذهب في قطعان سيدتي تاركاً نسائمه تغمر نفسي الشاعرة، واطئاً الأرض بقدمين حالمتين بالهرولة والعدو أكثر خلف صغار النوق والغنم، مسافراً ببصري على ضفاف وادي حنيفة.

وبعد أسابيع أمرتني سيدتي بأن أحمل أطباق الإفطار وأن أذهب بها إلى دار الإمارة.

حَجْرُ اليَمَامَة ـ دَارُ الإمَارَة 1

دار الإمارة وبيت الأمير، تقع قرب السوق، تُحيط بها الدور التابعة للأمير، مثل المسجد الجامع، وبيت المال، ودار القضاء، ودار الجند، والسجن، ودار البريد، والعامل على السوق. أمامها نصبت خيام سود متباينة المساحات، وأرضها مرتفعة.

رأيت وجوهاً لم أرها من قبل، واختلطت في ذاكرتي كل الوجوه التي عبرت حياتي، ورأيت أمير حَجْرٍ ساعتها قد أقبل ممتطياً صهوة فرس صفراء ضامرة بهية، فأفلتها وتَرَجَّل تاركاً للسائس الجليل لجامها الغليظ ليتولى أمرها، بعد أن هرول لملاقاته في ساحة الدار، وتبعه الأمراء وملأٌ من حَجْر، والحاشية خلفهم، وحين نادى الحاجب عن وصول الأمير، ظهر على الباب الواسع الكبير ذي النقوش الناعمة والرسوم الهندسية خدم وجند وموظفون كثر وقفوا إجلالاً له، فعبر ومن معه وقد وطأوا بُسطاً ملونة، تُزين رؤوسهم عمائم بيضاء ناعمة

وعصائب بألوان القصب، وآخرون يعتمرون عصائب دائرية صنعت يدوياً من صوف الماعز الأسود، مختومة الأجزاء المربوطة، وقد بطنت بالقطن الأبيض، ويلبسون عباءاتٍ متقاربة خيطت من وبر الإبل، عندها هرع آخرون بدورهم ليساعدوه في خلع سيفه ذو المقبض المرصع بالفضة وزخرفة الذهب، النائم في غمدٍ من سميك الجلود، منمنمٍ بالنقوش الملونة.

هب الجميع واقفين، ونهض الآخرون تباعاً، وتقدموا لاستقباله، وتقدم رافعاً يده اليمنى مسلماً، فتقدموا نحوه وصافحوه ورحبوا به حتى حلّوا ديوانه الخاص باستقبال الناس في قلب دار الإمارة، وجلس في الصدر وعن يمينه وشماله جلست الحاشية، ثم استأذنوه لإعداد الطعام وعمل ما يجب على إكرام الحاضرين.

تحدثوا طويلاً عن الجدب الذي حل السنة قبل الماضية، وعن طُرُقِ القوافل التجارية من اليمامة إلى البحرين، وعن نقص بعض البضائع، وعن خشية خلو المخازن في حال حلت مجاعة، أو توقفت حركة القوافل.

دخلت الديوان ورحت أُميز الجالسين من ثيابهم، التجار والأمراء، والوجهاء والموظفون، والرُّسُلُ والبسطاء، والأئمة والضيوف، شاركت خدماً يوزعون أطباق الضيافة، فوضعت الطعام الذي أرسلته معي سيدتي سقَّانة على مائدة زُيّنت ببساط طويل مزخرف بالأحمر

ومنقوش بالأصفر، وغاب صوتي في حنجرتي حين شدني أحدهم من ساعدي:

ـ ما اسمك؟

ـ ليس الآن يا سيدي.

ـ لأمك الويل، أتعرف مع من تتحدث؟

ارتجفت كأعزل الثياب في ليلة شتاء، ونظرت في كل الجهات، وقال:

ـ ما بالك؟ ألا تخبرني ما اسمك؟

ـ أبو النجاة ، أبو النجاة يا سيدي.

ـ عند من تعمل؟

ـ عند سيدتي سفَّانة.

فأطلق ساعدي بعد نظراته الطويلة في وجهي.

هكذا قضيت شهراً أنقل طعام الضيافة إلى مجلس أمير حَجْر، حيث يجلس الناس كل صباح وينفضوا عند الظهيرة، وهو ينظر في شؤونهم ويسألهم عن أمورهم، ويقف عند حاجاتهم، وأنا أرى وأتأمل، حتى جاءت مرة نشب خلاف حول قافلة تجارية، وتناوش الطرفان بألسنٍ حداد، حاول عقلاؤهم إيقاف الخلاف، إلا أنهم احتكموا إلى السلاح، ثم بعثوا رسولاً إلى أمير حَجْر، واستدعى شيوخهم واختلى معهم في حجرة من حجرات دار الإمارة، وبعد العصر أعلن الحل المرضي للطرفين.

*

في ضحى أحد الأيام كنت أقوم بنفس عملي المعتاد في دار الأمير، فدخل عليهم رجل عظيم الطلة، كثيف اللحية، شديد سُمرة البشرة بدت عليه وعثاء سفر طويل، بدى أنه رسول، كان يحمل بيده رسالة مطوية، وطلب من الحرس أن يلتقي بالأمير.

دخل حاجب الأمير الطويل النحيل ذو الملامح الهادئة والبشرة الحنطية، والوجنتين البارزتين، وأخبره أن رسولاً يطلب الإذن بالدخول، فأذُن له وجلس جوار الأمير وقد حف الصمت الديوان، وجاء الخدم بالقهوة وراح الجميع يشرب في صمت، كان الرسول في ثياب رمادية، مسنداً ظهره إلى الأعمدة المقوسة ذات التصميم النجدي، يطوق خصره حزام جلدي عريض، يتدلى منه سيف مودع في غمد مزخرف بالنقوش والرسوم الصغيرة.

بعد لحظات أذن له ثانية وسلّم الأمير الرسالة، ثم جلس وأُكرم بالطعام والشراب، وهو يرسل إلى الأمير نظرات حذرة، شرع الأمير يقرأ الرسالة بعد أن فضّها وفردها أقرب مستشاريه، وفجأة فار دم وجه الأمير، وعبست ملامحه، وانفرجت شفتيه عن كلام تردد في إطلاقه.

لزم الأمير الصمت وقتاً، متابعاً بعينيه الواسعتين كل سطر وكلمة، ناكساً رأسه في حركة بطيئة لجفنيه، وكلما جاءه الخدم بالقهوة رشف

صامتاً دون أن يرفع عينيه عن الرسالة، وسريعاً رفع رأسه مُخاطباً الرسول بعد أن رمى الرسالة في صفيح الجمر المعد للبخور:

ـ بإمكانك الانصراف بعد أن تنتهي من طعامك وشرابك.

ـ هل من رسالة أنقلها معي أيها الأمير؟

ـ نموت أحراراً مثل ما عشنا أحراراً. هي رسالتي.

ـ وهل من هدنة أيها الأمير حتى لا تقع المعارك بيننا؟

أجاب بخشونة:

ـ طَوْعَ أُمراء نجد لا طَوْعَ أَمرِكم.

وطوح بفنجانه المزخرف بنقوش مموهة ثم ألقاه أرضاً، ونهض الرسول مستأذناً بالعودة إلى قومه، وتجاوز قنطرة دار الإمارة حَانِقاً خارجاً لا يُكلّم أحداً.

سُوقُ حَجْر اليَمَامَة 2

اليوم التالي، وبعد أن بانت خيوط الصباح، طفقت في طرقات حَجْر، بعد أن أطفأ جوعي خبز أُريق عليه عسل التمر، صنعته سَعْدَى ورفيقاتها بأيدٍ نحيلات فاتنات، ففطنت أني هذا الصباح أكملت الواحد والعشرين من عمري، وقفت غير بعيد أتأمل سوق حَجْرٍ، الذي اصطفت فيه قوافل التجار، والزوار، والباعة والجائلين، نُوقٌ بالعشرات، محملة بشتى البضائع والصُّرر والصناديق، يضم السوق ما يقارب ثلاثمائة حانوت محاطة بسورٍ يُقفل ليلاً.

صراخ الباعة يعلو فوق بعضهم، وبسطٌ ملونة منتشرة في مواضع مختلفة، وحدادون امتهنوا صناعات معدنية لأسنة الرماح، وحدائد وحرف معدنية، ونبال وإلى جانبهم أقواس مسندة إلى حائط الطين.

نظرت إلى قربٍ وقنانيّ وجِرار فارغة عُرضت أمام الحوانيت، ومثلها قربٌ وقناني وجِرار مُترعة أمام الحوانيت المقابلة، ومن خلفها أوعية

بأحجام متباينة، وباعة يتخلصون من بضائع كسدت، بعد بيع بعضها بأثمان لا تذكر، انتبهت لرواحل رفع أصحابها نساءهم إلى الهوادج، ودونهم عرّافة اليمامة وقد رفع خدمها هودجها فوق راحلتها الصفراء، وجماعة تجلس جانب إبلها، وقطعان مواشيها الصغيرة.

أبطأت أنظر إلى الحمّالين وهم ينقلون الغلال والصناديق إلى العربات الخشبية التي تجرها الإبل، من خلفهم غلال القمح والدقيق المرصوصة، وصناديق الملح والسكر المعروضة أمام المشترين، تجاورها لفائف الحرير والأقمشة الثمينة المشدودة على ظهور الحمير والبغال.

رحتُ أقلِّبُ بصري في الوجوه النجديَّة، وأُحملق في قدود النساء النجديَّات الساحرات، وهن يعبرن وعلى رؤوسهن خُمُر تعبق بالعطور والحناء، وأخريات يتضاحكن قرب متاجر البخور يحملن سلال الطحين والخبز المصنوعة من الخيزران، وسلالاً أخرى من القصيب لحفظ الثمار بعد قطفها.

كانت حَجْر وقتها متحركة ومزدحمة ككل يوم، وعلى أطرافها يكثر عراك الفتيان، وتتداول الفتيات الشائعات التي تلقى رواجاً سريعاً، تَفَرَّسَت عشرات الأعين في ملامحي، فأشحت عنها ونظرت في جهة أخرى إلى أعمدة منصوبة في مدخل السوق فلاحتا لي امرأتان

تتحدثان، وما أن رأيتني أنظر إليهن حتى توارتا خلف العمود، فجأة لكزتني سَعْدَى قائلة:

- هل أُغْرِمتَ بهن؟

فسألتها بارتباك:

- من هُن؟

- النجديات.

وجرت بين شفتيها الفاتنتين ضحكة صاخبة ناعمة كادت تفضح وقوفنا، وَسَأَلَت:

- هل سيكفيك الأجر الذي ستعطيك إياه سيدتي؟

- أجر؟ وهل ستعطيني أجراً؟

- نعم، ألم تكن تعمل عند سيدك الجديسي بأجر؟

- كلا.

- كلا؟

- كان طعامي ومأواي هو أجري.

جمعت يديها إلى الوراء واستندت على العامود الطيني:

- هل أكلت هذا الصباح؟

- نعم وكل ظني أن طعامي ونومي هو أجري.

أشارت بسبابة يدها اليمنى جهة السوق:

ـ الدراهم الفضية التي يتناقلها هؤلاء الباعة والتجار، ستكون أحدهم بعد أيام، وسيُطربك رنينها في جيوبك.

ـ لا أعرف أحداً يأخذ النقود سوى الذين يعملون في القوافل والتجارة، وأنا أعمل لقاء الطعام والشراب والمأوى.

ـ ولكنك ستتولى تجارة سيدتي سفَّانة.

اقتربت منها، واقتربت مني، ورأيت على وجهها ملامح الخير، أزاحت خصلات شعرها عن عينها، ثم نظرت بحب:

ـ يوجد عمل لك، ويوجد أجر أيضاً.

ـ ولن أعود إلى سيدي الجديسي؟

ـ أبداً.

ثم أولتني ظهرها مبتعدة:

ـ لقد باعك إلى سيدتي سفَّانة، ولحظك الحسن، رأت فيك سيدتي ما لم تره في فتيانها وفتياتها كلهم.

زممت شفتي الغليظتين مستغرباً، ثم ساوت جديلتها الشقراء المقرونة إلى ردفيها، وسارت تجاه السوق واختفت بين الحوانيت وضجيج الباعة وزحام المشترين، وإذا بكل من عبر قربي ألقى عليَّ التحية، ونظر إليَّ بتساؤل عن وقوفي، ثم عادت سَعْدَى وفي يديها قماشة مليئة بالخضار وأدوات العجن الصغيرة، وقالت:

ـ أما زلت هنا؟ هيا بنا، مؤكد أن سيدتي ستبعثنا في عمل طويل اليوم.

ـ هيّا.

كان ظلي وظلها النحيلين فارقين على ثرى سُوق حَجْر، وما أن سلكنا بين البيوت الطينية إلى خان جليلة حتى دنت من سمعي تلاوة نجدية بصوت فتىً يقرأ القرآن بشجن جلي:

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 2

لم أنم جيداً خلال الشهور الأولى، كان جسمي متعباً من العمل الثقيل وملامحي متهدلة، فهي أعمال متكررة أهمها جزّ صوف الأغنام، وتقليم غصون الأشجار، وخرف النخيل الطوال، ونثر البذور على مساحات واسعة، وحفر السواقي العريضة، وجمع الثمار، وطحن الحبوب الصغيرة، وتجفيف المحصول الطازج، وعصر عسل التمر وتعبئته في قناني أنيقة ذات أعناق طويلة، وإتمام ولادة صغار الأغنام، وكذلك صغار النوق، وكان كل هذا لقاء دراهم فضية هي ما بقي من ضرب دار السِّكة في حَجْر، تضعها سيدتي سفَّانة نهاية النهار، بعد أن يسبقها لسعات خيزران العامل على السوق، الذي كُلف من أمير حَجْر اليمامة بتنظيم ومتابعة حركة السوق، وملاحقة المخالفين لتعليماته، تلك السياط كانت سَعْدَى تداويها بعد أن تداوي قلبي بحلو كلامها، فأنا لم أحبها تماماً، ولكنها كانت قريبة من قلبي.

في حَجْر، موطني الجديد، وجدت نفسي في خدمة سيدة تشبه الخلفاء والولاة والأمراء في هندامها وطرائق حياتها، بعد سنوات من العيش المتبعثر والترنح بين القلق والطرد والشدة المنتهية بخدمة الجديسي، وبعد تلك الألسن التي تلسعني بعبارات الرق، وتعاملني بكل معاني وأساليب العبودية، وأنا أطارد حياتي في أحياء جَوّ.

في الشهور الأولى من العام الثاني بعد عملي في بيت سيدتي سفَّانة، استلقيت على فراشي، طارداً من أجفاني شقاء نهار بأكمله، تركض عيناي في مساحة الحجرة الصغيرة، مستعيداً الغائب من أيام خلت في جَوّ حين كنت أشرد عن الغزاة بين النخيل، وأخدم القوافل الغادية والرائحة على ضفاف وادي حنيفة، لقد أخذت معها دم الحياة النقي ومعناها الشهي.

تخبطت عيناي في نعاس ويقظة حتى استيقظت على صياح ديكة يتبعه مواء قطط، فَجَرَّ النعاس عيني إلى نوم ثقيل، ثم استيقظت على خيوط النهار تتساقط من شقوق السقف الخشبي، وصوت صرير مصراع الباب يُفتح ببطء، فإذا سَعْدَى تقول من خلفه:

ـ يا مجنون، ستغضب سيدتي على بقائك نائماً حتى الآن.

كان الجميع مستيقظاً، وقد جلسوا في فرشهم في فناء البيت، وخرجت من حجرتي أحمل صرتي التي بقيت من عمل الأمس، وأنا أنظر في

بيت سيدتي، قارئاً عروق الجذوع، وخدوش الجدران، وشقوق الأعمدة، وحين رأتني سيدتي قالت في لكنة مثقلة بالثناء:

ـ لقد أنجزت مهمتك بشكل فريد.

أخفضت رأسي:

ـ هذا من حسن ظنك سيدتي.

ـ لقد اشتد عودك أكثر، وازداد منكباك قوة، وبرزت عضلات ساعديك، وبان حسك بالمهمة تلو أختها، وقد رأيت فيك هذا الشهر ما يجعلني أسلمك قيادة أعمالي، عِوَضاً عن الفتيان الذي رحلوا قبلك غاضبين، ومعترضين على صعوبة ما أوليته لهم.

ـ أنا بإمرتك سيدتي.

ـ من الآن أنت مُتَصَرِّفُ قوافلي.

فقلت مرتاباً:

ـ مُتَصَرِّفُ قوافلك!

ـ بالتأكيد.

ـ هذا من كرمكِ الكبير سيدتي.

رفعت يدها اليمنى فانحسر كمّها عن ذراع ممتلئة بيضاء تزينها ثلاثة أساور ذهبية:

ـ ستذهب غداً إلى سوق الخِضْرِمَة في جَوّ.

انفجرت دهشتي حينها وسريعاً قلت بصوت رتيب:

ـ وماذا أفعل في جَوّ؟

ـ ستوصل بضاعة متنوعة حشرتها في صناديق متوسطة، يحملها عشرون بعيراً، وتذهب بها وتبيعها هناك في صباحين أو ثلاثة أو تزيد، وتعود من حينك، إلا إذا طرحك مرضٌ أو موت.

وبعد صمت قصير أضافت:

ـ استأجرت لك خدماً وجنوداً لخدمتك وحمايتك في الطريق.

*

بكيت طويلاً ليلة سفري إلى جَوِّ اليمامة بعد أن تذكرت الأعوام التي قضيتها في أحيائها، فزارتني صور وأصوات أهلي الذين فارقوني، والأيام التي قضيتها في خدمة سيدي الجديسي رغم سوئها.

وفي صباح سفري راحت سَعْدَى تتأمل كل شبرٍ في، وكأنها تودعني وداع الغائبين، وتبتسم بثغرٍ اختلطت فيه البسمة بالأسف، فجف قلبي وسافرت عيناي الصغيرتان في وجهها الطويل المرتوي، وجسمها الناعم الصافي الفتي، وكأني أطلب عهد الحب قبل الذهاب. رفعت يدها تودعني فانحسر جلبابها من يدها إلى نصف عضدها، فبادرت لسعة لذيذة قلبي الضعيف، ثم ضحكت وأخفت وجهها بيدها داخلة.

جَـوُّ اليَمَامَة ـ سُوقُ الـخِضْرِمَة 1

مرت ليالي السفر سريعاً لأجد نفسي على مشارف جَـوّ حيث تراءت أسوارها عن بُعد، فتدفق إلى مسامعنا خرير مياه أوديتها وألحان ينابيعها، وألـهمتنا بساتينها التي بلا أسوار.

دخلناها وقت الضحى قاصدين سوق الـخِضْرِمَة، السوق التي عملت في حوانيتها ومرابطها منذ اشتدت فتوتي، وأول ما استقبلنا داخلين حانوت سيدي الـجديسي المطل شرقاً في أول السوق، وأمامه فوضى وبضائع مصفوفة، وخدمه يربطون خيوله بمربط واحد، وينيخون إبله في مبرك واحد، ورأيت قافلته التي وصلت للتو أمام حانوته المقابل أيضاً، رأيت مواشي تُساقُ إلى طرف السوق، ورأيت شيوخاً بشعورٍ طويلة مرسلة على أكتافهم، يعانقون شيخاً قادماً من سفر، ونسوة يُسلّمن على عجوز جالسة.

كانت جَوّ ذلك النهار غير كل النهارات التي عرفتها، حدثت نفسي:

ـ أهذه جَوّ؟ جَوّ التي التصقت بها طفولتي وطار بها صباي.

تذكرت كيف كنت أعمل في خدمة أحد النجارين المتعنتين قبل أن أُباع للجديسي، وتذكرت مواسم الصيف والشتاء التي عبثت بصحتي غالباً، وها أنا اليوم أسوق القوافل التجارية، التي لا أملكها بالطبع، وليس لمثلي أن يملك ناقة واحدة، ولكني أملك ثقة أصحابها وبعض المال الذي يقضي بعض مطالبي، فها هي النقود ترنّ في جيوبي بعد أن كان ذلك حُلُماً لولا فضل الله ثم إنصاف سيدتي سفَّانة.

*

انغمست في شأن تجاري ثقيل، فقد قايضت عشرين رأساً من الضأن بناقة واحدة، وكان الطرف الثاني هو الرابح، لأني تفاجأت بارتفاع أسعار البهائم التي لم تهوِ أسعارها قبل عام إلا وعاودت الارتفاع، كان الباعة يعرضون في حوانيتهم المؤن الكثيرة، والأعلاف المرصوصة، وغلال الطحين والنخالة وأنواع التمور، ويحشون في جيوبهم الكثير من الدراهم الفضية والدنانير النحاسية، ليستعجلوا مغادرة السوق، بعد أن يتزودوا لرحيلهم بما يكفي من طعام وشراب ونبال صيد.

تسارعت الأيام الخمس بعد أن أنهيت ما كلفتني به سيدتي من عمل في سوق كبير يقع خارج حصن جَوّ، فقد بعت كل الصناديق التي ظلت القافلة تحملها ورائي من حَجْرٍ إلى جَوّ، بعد أن سارت بها طويلاً، وأنا أرهف سمعي لكل حديثٍ يجري بين اثنين، أو جماعة،

فقررت أن أُباشر المسير إلى حَجْرِ اليمامة، ففككت خطام بعيري الذي تركته في مربط البهائم في السوق، لأودِّعَ جَوّ اليمامة مرة أخرى كما ودعتها بصحبة سيدي الجديسي يوم أدخلني في جُوقة عبيده، وباعني لسيدتي سفَّانة التي أكرمت مثواي.

عَلَى طَرِيقِ حَجْرٍ مِن جَوّ ـ غرب وادي حنيفة

على جانب الطريق أمام إحدى البساتين، اتخذنا مضاجع للنوم، حتى صار الوقت منتصف الليل، إلا أنني انتبهت لأمرٍ ما، أحد الفتيان كان يشهق شهيقاً عالياً متواصلاً ثم خمد فجأة، كنت أقرب المضطجعين إليه، رأيته لا يتنفس، غادرت فراشي رامياً لحافي سريعاً، فضغطت كفه فإذا هو بلا حركة، أدخلت يدي بين ثيابه لأتأكد من نبضه، فإذا هو متوقف، عرفت أن نَفْسَهُ قد غادرت إلى ربها، فبكيت عند رأسه بكاءً خالطه النشيج، حتى أستيقظ الخدم والجند والفتيان، وقفزوا من فُرشهم عدواً إلي، وأصواتهم تتداخل سائلة:

ـ ما بك؟

وآخر:

ـ هل أنت بخير؟

وآخر:

ـ ماذا هناك؟

فرأوه ميتاً، وقال أحدهم:

ـ من حسن حظه أننا في كل قافلة لا تسير إلا وقد أخذت حنوطاً وكفناً تحسباً لميت مرتقب، إلا هذه القافلة، فقد أخذنا حنوطين وكفنين، فهذا الأول، ولا نعلم هل نصل حَجْر وقد مات الثاني أم لا.

ثم شرعنا في تجهيزه، ورفعناه على لوح خشبي بحدود رفيعة، وخلعنا ثيابه، ومضيت طويلاً في غسله ولصوتي ألم يضرب حلقي، وآخرون يشرعون في حفر قبره، وأعيننا محمرة من الحزن عليه، فأَخبَرَنا أحدهم بنَبَئِه:

ـ مذ خرجنا من جَوّ وهو منكفئ على ظهر ناقته، متعلقٌ بسنامها، محاولاً تخفيف ألم باغته.

وما أن تم تجهيزه للدفن حتى أودعناه حفرته على وقت صلاة الفجر، فصلينا، وصلينا عليه ودفناه مكانه، وأقمنا له عزاء قصيراً لم يحضره أحد سوانا، كنت أنا المُعزِّي والمُعزَّى، فكل شيء في الحياة مثل التجارة والمعاملات بين البشر، بحساب وأرقام.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانَة 3

بعد مسير يومين تامين ونصف ليل أقبلت قافلتنا على حَجْر، فلاحت قلاعها وبيوتها المتلاصقة، وسمعت صهيل الخيول من أمام الأخبية، ورغاء الإبل في المراعي، تماماً كالذي سمعته ورأيته في جَوّ، تجاوزت وادي حنيفة باتجاه الخان، فأنا كسائر أهل حَجْر أحفظ طرقاتها وممراتها وأحياءها، من كثرة ما عبرت ونقلت وجلبت، فنزلت عن بعيري، واجتررته ورائي حتى أرهقني المشي، إلى أن بلغت الخان، فتزاحمت على سمعي أصوات نسوة يهمسن لبعضهن من وراء النوافذ ذات الحدود المطلية بالنقوش الجصيّة، وأمام الأبواب الممهورة بالزخرفة النجدية المتعددة الألوان:

ـ جاء أبو النجاة، قد أنجز تجارة سيدته.

وأخريات:

ـ قد وثقت به، وأولته أموراً كبيرة.

وأخريات:

ـ أفتىً لخدمتها أم ابناً لها؟!

كان بيت سيدتي موصداً، وأمامه جروٌ أصفر هزيل منطرح قد سدّ الباب، فدفعته بقدمي اليمنى مُترفقاً، فتحرك من مكانه ببطء وغادر وهو يشم الأرض، فتحت سَعْدَى ببطء ثقيل الباب العريض المُزَيَّن بالزخارف والنقوش النجدية، وأشرقت دون خمار، بان وجهها مفعماً بالحياة، وشعرها مطروحاً على كتفيها مُغطياً جزءاً من صدرها، كأن عينيها قمرين لامعين حين نظرت إلي، فقالت في خجل:

ـ حمد لله على سلامتك.

تجاوزت الباب فأوصدته بهدوء، شممت عطرها، وأبهرتني ابتسامة أكرمني بها ثغرها الشهي الندي، كانت أسنانها صفاً لافتة للعقل، فلتت من حنجرتي شهقة ولكنها دون صوت، وإذا بسيدتي جالسة في ركن الفناء، وبين يديها وعاء اللبن، ونظرت إلي بنظرات كلها ترحيب، ونادت بصوت عالٍ:

ـ يا فتيات.

وخرجن الثلاث من البيت مهرولات وهن يكررن:

ـ بأمرك سيدتي، بأمرك سيدتي.

وضعت سيدتي وعاء اللبن جانباً وقالت:

ـ قدمن لأبي النجاة الطعام والشراب، وأنجزن مكان نومه، لينام البطل في راحة تامة الليلة.

وعند المغيب، أشعلت سَعْدَى ناراً كبيرة في موقد الطبخ، وجلست سيدتي متشحة بالعباءة الثقيلة المصنوعة من صوف الأنعام، ووضعت الصحاف المملوءة بالخبز واللحم والحساء والحليب، أتممت طعامي وَصَلَيتُ جسمي المتعب النحيل على النار، وأنا أخبر سيدتي تفاصيل ما كان معي في سوق جَوّ، ثم غبت داخل حجرتي ونمت نوماً متصلاً لم يُعكره حُلم مريب أو تُكدره يقظة الفجأة.

*

الوَسْم.

هذا العام باشر المطر نجد وضواحيها، فهللت الناس، وتباشرت بالحياة والسيل الذي سيعبر الأودية والشعاب، وسيعطِّر الأرض برائحته الساحرة.

في ذلك المناخ المشبع بعلامات الوَسْم، بعثت بي يومها إلى بعض أعيان حَجْر من أصحاب التجارة لإبرام مكاتبات تجارية للعام الجديد.

في نهار ذلك اليوم استقر كل شيء هناك، وقمت والفتيان والفتيات بعمل كثير متشعب في طرقات الخان المزدحم بالمسافرين القادمين من شرق الجزيرة، والذين تعاهدوه في كل موسم حجٍ أو موعد سفر.

ومع حلول الظلام، وتحت أضواء المشاعل استقر جماعة من الأعيان عند باب سيدتي، وأدخلهم الفتيان فجلسوا على هيئة مربعة في فنائها، فانتهز أحدهم والذي كان شديد البدانة قائلاً:

ـ هل من أمر يا سفَّانة؟

ابتسمت ثم بصوت يخالطه العَجَب قالت:

ـ تعرفون أنا كابدنا الجدب، وقطاع الطريق الذي كادوا أن يغنموا قوافل تجارتنا مرات ومرات، لولا أنها مدججة بالفرسان والحرس، هذا غير الأوبئة التي تحوم حول نجدٍ بعد أن تفشت في جيرانها.

أنصتوا جميعهم بأعينٍ منتبهة لكل كلمة، وعندما أنهت سيدتي حديثها، سكتوا زمناً قبل أن يفتح أوسطهم قراطيس انتزعها من جيبه، وبملامح أجهدها قليل النوم:

ـ إليكِ هذه العقود يا سفَّانة.

استنكرت سيدتي:

ـ هل هي عن قطعان هالكة أم عن مجاعة قادمة؟

لوى سبابته اليمنى في الهواء نافياً:

ـ أجارنا الله وإياكم من كل هذا.

أغمض جفنيه وعاد فتحهما ثم أضاف بلهجة مطمئنة:

ـ عقود أُنهيت بيننا جميعاً من عامين، وكان علي إيصالها إليكِ لجعلها في خزانة معاملاتك وصحائف قوافلك.

عندها دخل الفتيان يحملون أطباقاً دائرية تنتصب عليها أكواب مترعة بالماء وأخرى باللبن، وأطباق أخرى تلمع عليها ثمار التمر، وفناجيل القهوة التي راحت تدور عليهم.

وبعد مفاوضات تجارية واتفاقيات بشأن حركة القوافل، كان منتصف الليل قد اقترب، فخرجوا من باب سيدتي كأنهم موكب. ركبوا نوقاً جسيمة كانوا قد أناخوها بباب سيدتي، وانتزع آخرون مشاعلهم وساروا راجلين كما جاؤوا. تنتظرهم طريقهم إلى بيوتهم المتجاورة في قلب الخان.

شَرْقُ مَنْفُوحَة ـ غَرْبُ الخَان 1

على وهج شمس العصر، خرجت أتسكع في أحياء حَجْرٍ دون غاية أو هدف، فرأيت سَعْدَى تجلس أسفل سور طيني طويل على رأسه غرست أطراف يابسة من سعف النخل، من حولها حشد من النجديين الذي حضروا ليشاهدوا سباق الهجن، حين جرت عادة سنوية بنفس الوقت لإقامة هذا السباق، فإذا بصرخات حماسية تصعد من حناجر المتسابقين، وضجيج يتطاير من تحت أخفاف الهجن السريعة، وهتاف عشوائي يتداخل بين الناس، كلما نادى كل واحد منهم باسم المتسابق المحبب إليه.

اقتربت من سَعْدَى وجلست إلى جوارها، والحماسة تضخ دم وجهها، وتشد طراوة أعضائها، وهي مستمرة في النداء:

ـ أسرع أسرع.

ثم مدت يدها إلى داخل الصرة وأخرجت لفافة من الخبز المعجون بالتمر وناولتني إياه، ورددتها شاكراً، فسألت:

ـ هل رأيت هذا السباق من قبل؟

ـ كثيراً.

ـ أين؟

ـ حين كان سيدي الجديسي يحضره مع ملأ من أهل جوّ.

فأشارت إلى مكان السباق:

ـ أرأيت المسافة التي يقطعونها؟

ـ أراها.

ـ لم تشهد حَجْرُ مسافة مثلها في الأعوام الماضية من السباق.

وأشارت بعينيها إلى متكأ قرب السور صفت عليها رماح طويلة، وخيزران كثير، ورجال يقلبون السيوف على وهج من السعير الموقد لنصف يوم، وقالت بزهو:

ـ ذاك المتكأ أشبه بساحة استعداد لمعركة، فالناس هنا مترقبون دوماً لأمر ما، عدا سيدتي سفَّانة فهي في نهج حياتي بعيد عن هذا.

ـ وهل ستحدث حرب؟

ـ ليس دائماً.

ـ وهل قدري أن تلاحقني الحروب والغزوات حيثما وليت؟

ـ مؤكد أن عرّافة اليمامة أخبرتك بذلك مثل ما أخبرت الآخرين.

ـ نعم نعم، فكثيراً ما رأيت الأمير يلبس لباس الحرب، ويخرج من داره إلى ساحات حَجْر، ليبث روح القوة في الناس والمتطوعين، فيصطف المئات من حوله.

ارتفعت فجأة صرخات الحماس، وأكملت:

ـ كما امتلأت حوانيت الحدادين بطلبٍ كثير لصناعة السيوف وحشو البنادق، حيث العامل على السوق يراقب أسعار السلاح للتأكد من أنه على حالته.

عندها انفض حشد المشجعين، وخُتم السباق لصالح جماعة من الفائزين، وسرتُ وسَعْدَى تاركين مسافة قصيرة بيننا، لم نشعر بها، بسبب زحام المغادرين مكان السباق، رأيتها تحاذي البيوت وأنا أتبعها وأركل صغار الحجر أمامي، فالتفتت وراءها وابتسمت:

ـ تتبعني؟

ـ بالطبع.

ـ كان بوسعك أن تمشي بجانبي.

ـ فاتني هذا.

ـ سأرى ذلك لاحقاً.

كانت تنظر إلي مثل بريء، وأشعرتني بأني جميل النفس والقلب، لا مُهاناً ومُؤذى مثل ما كنت عند سيدي الجديسي، لمست بباطن أنامل يدي اليمنى خطوط السوط التي تركها العامل على السوق على

كتفي وظهري، واكتفيت بسياط الحب الذي لاقاني في حَجْر، حيث أضمر ضمادي وجاء ببرئي، فقد كسرت سَعْدَى بنظرتها حيائي منها أكثر من ذي قبل، وارتفع منسوب أملي وغاب خوفي، فصار قلبي كلما أقبلت علي ينشد قول أعشى اليمامة:

قَد نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى صَدْرِهَا
فِي مُشْرِقٍ ذِي صَبَحٍ نَائِـرِ
لَو أَسْنَدَت مَيْتاً إِلَى نَحْرِهَا
عَاشَ وَلَم يُنقل إِلَى قَابِـرِ
حَتَّى يَقُولُ النَّاسُ مِمَّا رَأوا
يا عَجَباً للمَيِّتِ النَّاشِـرِ.

حينها رفعت مئذنة المسجد الجامع أذاناً عذباً نقياً، اصطحب ذاكرتي الممتلئة بأعوام الظمأ والحنين، إلى أيام صباي وطفولتي في جوّ، ومن حُجُرات إحدى البيوت القريبة انحدر في سمعي صوتٌ شجيٌّ لشيخٍ يقرأ بالتلاوة النجدية التي توارثها النجديون سنين:

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ}

عندها انبعثت من نفسي رائحة الحنين إلى بيوت الطين ووبر الخيام، فطال بي التفاف الدروب.

سُوقُ حَجْر اليَمَامَة 3

في صباح مشحون بالحياة، رأيت جماعة صيادين من سكان حَجْر يعرضون قطيعاً من الظباء الحمر، فاستأذنت سيدتي سفَّانة لأستفهم منهم عن تجارة الظباء، فرفضت رفضاً قاطعاً بحجة أني مؤتمن على عملي معها لا غير، ولست متفرغاً للخوض في تجارة غير تجارتها خصوصاً تجارة الضباء، وفي الصباح ذاته، وصلت قافلة الجديسي، وخرج في استقبالها حشد من الذين يرون في بضاعته ما يروق لهم، يسبقهم وجهاء حَجْر، واقترب منه بعض الفتيان والفتيات يسألونه عمّا تحمله قافلته من البضائع، وراح بعض التجار الصغار يتفاوضون معه قبل أن تتلقف الأيدي صناديق وصرر البضاعة.

خرجتُ أتفرج على ما يجري، كنت في تردد من أن يراني سيدي الجديسي بعد آخر مرة، رأيته وقد أناخ بعيره، بدا مظهره حسناً بعد آخر مرة رأيته، صافي البشرة، طويل الشعر المرسل على كتفيه، لحيته

عظيمة مُحناة، يعتمر عمامة قطنية بيضاء يشدها عقال خماسي الأضلاع مصنوع من الصوف الأسود الناعم، تزينه خيوط صغيرة.

أقبل الناس عليه، وهو يتفاوض مع تجار وزبائن حَجْر، كلما مد له مشترٍ الدراهم الفضية هزَّ رأسه ودعا له بالتوفيق فيما اشتراه، أقبلن على قافلته نسوة واشترين منه كالبقية، ووضع لكل منهنّ صناديق وأمر فتيانه أن يحملوها ويسبقوهن إلى بيوتهن، فالتفت إلى إحداهن:

ـ ألم تتزوجي بعد؟

ـ ستعرف حين ترى فعلتك اللعينة.

امتقعت وجهه وكأنه أقرَّ بفعلةٍ قبيحة، فطأطأ رأسه وسكت لحظات، وهي تنظر في وجهه باهتمام فقال:

ـ أخبريني كيف أحوالك؟

ـ لا شأن لك، أما ترى أننا في السوق ولسنا وحدنا؟

أشار إلى اثنين من فتيانه فحملا صندوقاً كبيراً من الأرض وذهبا به إلى بيتها، فنظر إليها برجاء كبير وهي تشيح عنه بوجهها وخمارها الرقيق، وقد سحبت ولدها من كتفه وهي تحدثه:

ـ اسمع يا ولدي، إني قد وعدتك برؤية أبيك الذي لم ترزق برؤيته إلا الآن، أبوك الذي صنع تجارة كبيرة وجعلك بعيداً عنه.

فقال له مرتبكاً:

ـ هل يثير هذا الأمر اهتمامك إلى هذا الحد؟

ـ حياتنا هادئة يا جديسي، ووادعة جداً، جربها فقط وكن أباً لابنك ليتعلم و. . .

قاطعها، بعد أن قبّل يديها الناعمتين، وقبّل رأس الولد وخديه:

ـ وكيف لصغير أن يعمل معنا؟

ـ حمّالاً.

ـ كيف له ذلك وهو في هذه السن؟

ـ سائساً لبعيرك أو مرشداً لفتيانك.

ـ لا جدوى من حديثك.

فتَّش في جيوبه وأخرج صرة نقود زرقاء ودفعها في جيب الولد، ثم أقام بعيره قائلاً بنغمة ثقيلة بالأسف:

ـ انتبهي لنفسك وللولد.

فارتفع لحظتها صوت الأذان من إحدى منارات حَجْر القريبة، وابتعد الجديسي حتى اختفى في السوق، فصرَّت أسنانها وأحكمت خمارها، وسحبت ولدها من يده قائلة:

ـ ألم أقل لك يا ولدي، أبوك لن تُرزق برؤيته.

في تلك الساعة شعرت كأن الزمن سحبني إلى تلك اللحظة المفاجئة التي دفعني الجديسي إلى السوق متخلصاً مني وباعني لسقَّانة، وانسحب في صمت كما فعل الآن.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 4

عدت إلى البيت عصراً، أجر خطوات سكرانة مترددة، فوجدت سيدتي سَفَّانة وسَعْدَى صامتتين، وكأنهما بلا ألسن ولا أصوات، ألقيت التحية وبعد لحظات جاء ردهما على تحيتي خاملاً بطيئاً، اشتغل تفكيري سريعاً فما دار بينهما قبل عودتي هو بالتأكيد شأن كبير، لاحظتا ارتباكي ونظراتي، دون أن تسألاني أو تستبينا مني.

عند المغيب أرحت رأسي على وسادتي، وأنا أستعيد مشهد المرأة مع الجديسي، وأحاول فهم اللغز الذي دار بينهما في حوار شائك المقاصد، فهو لا يمكن أن يكون حواراً عابراً أبداً.

بذلت وسعي مجتهداً لتشتيت ضباب التساؤل الكبير الذي أورثه مشهد الجديسي والمرأة، وبعد حيرة جلبت لي ألم القلب قبل العقل، قررت نسيان الأمر ونسيان الجديسي أيضاً.

*

وفي الليل كانت لخطوات سَعْدَى عطراً على فناء البيت، ساعة أقبلت تحمل بين يديها طبقاً بيضاوياً متوسطاً من اللحم المضاف إليه الملح والخضروات، كان في عينيها ضجيج المفاجأة، اتخذنا مكاناً قرب باب حجرتي، ودارت بيننا أحاديث شهية، وتفكّهنا بالطرائف العديدة، حتى سألت كالمتفائلة:

ـ أتقول الشعر؟

ـ أنا؟

وأردفت ساخرة:

ـ بل أنا . أجل أنت.

ـ كلا كلا.

ـ أنشدني؟

ـ صدقيني لم أقل الشعر في حياتي.

أمالت نظراتها ورأسها طرباً وألقت سؤالها:

ـ هل تشكو من زمانك؟

ـ ومن لا يشكو؟

ـ مؤكد أنك مشتاق لأهلك؟

ـ ومن لا يشتاق لأهله؟

ـ سيكشف الله لك الخير بعودتك إليهم.

ـ لا أظن من فتكت الغزوات بأرضهم أحياء حتى الآن.

ـ وكيف؟

ـ ابتلعتهم الغزوات تباعاً، بقي عمي الوحيد.

ـ حي؟

ـ لا أظن ذلك، أذكر أني هربت بين أزقة جَوّ والغزاة يطاردون الناس في كل اتجاه، كنت أقف معه في سوق الخِضْرِمَة، لم يكد يناولني البضاعة حتى سقط أرضاً، انحنيت عليه خائفاً، دون معرفتي ما الذي جرى له وأسقطه فجأة.

ـ وأبواك؟

ـ فتك المرض بأمي بعد ولادتي، وقبلها قُتل أبي حين كان برفقة قافلة حجيج تعرضت لها جماعة من قطاع الطريق، وقتلوا مَن فيها ونهبوها، ويُشاع أنه تزوج من امرأة من نساء البحرين، فآثر البقاء معها تحت سقوف من جذوع النخيل، فانقطعت أخباره، فأخذتني جارتنا مرجانة النجدية، وربتني وفاء لأمي وطلباً لجنة رب العالمين.

دفعتُ تثاؤباً كاد أن يُمزِّقَ فمي، وفجأة انفلقت على شفتي ابتسامة سريعة أعقبها حديثي:

ـ انضممت إلى الفتيان الذين يرعون الإبل والأغنام قرب وادي حنيفة، ووادي السهباء وأحياناً عند جبل الدام، وقررت بعدها تعلم صيد الظباء، معتمداً على طرائق خاصة ابتكرتها في خلوتي عند الرعي،

ودأبت على إخافة الفتيان والفتيات برمي الأفاعي الصغيرة في أحضانهم.

ضَحِكْتُ وَضَحِكَت هي مُدافعة ضحكتها الصاخبة بكفّها المرتوية الطرية البيضاء، فضغطت ألم جبيني مُكملاً بعد أن تغيرت ملامحي الضاحكة إلى المتذكرة:

ـ وفي ليلة شتاء، بعد يوم رعي متعب، وجدت جارتنا التي ربتني لازمة الفراش، وقد افترسها الجدري، فاعتصمت أياماً في خيمة صغيرة بعيدة عن جَوّ، حتى وصل نعيها فجر اليوم الخامس.

ثم أومأتُ بيدي:

ـ دعي الأقدار تخيط لنا ثيابنا حسب مقاساتها التي تراها تناسبنا.

فانقلبت على جنبي ثم استلقيت على ظهري ثانياً ساعدي مشبوكين تحت رأسي، وهي تنظر في بعينين نقيتين كنقاء الماء والهواء، وامتلأت نظراتها لهفة وإعجاباً، وأنا أبادلها النظرات ذاتها والإعجاب ذاته، وبعد صمت قصير بسملنا وتناولنا اللقيمات الأولى، وأنا أتأمل شفتيها المحمومتين الحمراوين، فألقيت أسئلتي وألقت إجاباتها:

ـ عيناك من صاغهما؟

ـ البارئ.

ـ وجهك من أنزل النور فيه؟

ـ المعطي.

ـ شعرك من أسرى الليل منه؟

ـ القوي.

ـ تَكبُرينَ ولا تَكبُرين.

ـ من أحبَّ لا يكبر.

وفيما هي تجيبني كنت أُلاحق حُسنها كمن يصعد إلى الجبل متهادياً في صعوده، لقد أبحرت في لجج الظن أن حالي هذه لن تدوم طويلاً، كحياة أهلي التي لم تدم بعد مولدي سوى أربعة عشر عاما وثمانية أشهر، قُتِلُوا بعدها على مشارف جَوّ اليمامة، وهم يصدون غزواتٍ تترى، وقُتِلَ جزء آخر منهم في طريق القوافل وهم في طريق التجارة.

حَجْرُ اليَمَامَة ـ الطُّرُقَاتُ وَالسَّاحَات 1

بحلول الفجر، هاجمت حَجْر جماعة ليست بالقليلة من المقاتلين الغزاة، قطعوا وادي حنيفة مسرعين، بعد أن تجاوزوا القرى والشعاب، كسَهْمٍ خاطف أرسلته يد المتآمرين، غزاة أبصارهم تنظر إلى الأفق الكبير، فصارت المسافة بينهم وبين حَجْرٍ تقصر شيئاً فشيئاً، فاندفع أهل حَجْر، ونادوا بإغلاق بوابات السور قبل أن يقترب المقاتلون، فانتبهت أن الناس حولي صاروا يركضون بسرعة إلى البيوت والمخابئ السرية.

وفي سوق الحدادين، احتشد آخرون لشراء النبال، وحد السيوف، وإعداد الحجارة المشتعلة، وحشو البنادق، ثم فُتَحت بوابة حَجْر وانطلق من تحت قنطرتها جماعة من الفرسان تعدوا تجاههم، فظن الغزاة أنهم أخفقوا خطة الهجوم.

ولما ازدادوا قرباً، وقعت مطاردة بين الفريقين، وكلما دنا أحدهم من الآخر، انحرفت عنه السيوف، ساعتها شعر الغزاة أن خيولهم قد تعبت، ولحق بها فرسان حَجْر، وقدا أحاطوهم من أغلب الجهات، حينها كانت من سطوح ونوافذ بيوت حَجْر ذات الرسوم المُقتبسة بحرفية من البيئة، تطل رؤوس النجديات ينخين فرسان حَجْر وقد انحلّت ظفائرهن، وطارت أصواتهن بالشِّعْرِ الحربي والنداء الحماسي.

رحت أتلفت في كل اتجاه، ثم ركضت خلف الراكضين حتى وقعت في زحام في مدخل الخان، وانتبهت لفتيان يتسلقون جداراً خفيضاً بعد أن قفزوا على عربة نقل الغلال، فلحقت بهم، لأجد نفسي معهم خلف الجدار، نراقب فرسان حَجْر وقد أسرفوا في قتل الغزاة، بعد أن أعانتهم فرقة كبيرة بملابس الحرب تتوسطهم الراية النجدية، كما أحكم مشاتهم الجهات، وانقض فرسانهم كالسباع، وأمطر رماتهم المعتدين بالحجارة المشتعلة بالنار، فتداخلت الصيحات، وارتفعت أوامر القادة بإيقاف صف من جهة، ودفع الآخر من جهة أخرى، وثار الغبار الذي صنعته حوافر الخيل المتزاحمة المتداخلة.

راحت قعقعة السيوف تنتشر في كل جهة، والتي عاثت في صدور المعتدين، فثار الرعب أكثر في الأنفس البريئة، وجفلت الأنعام، لتنتهي الساعات المريعة بقتل أغلب الغزاة ووقوع البقية في الأسر حتى وقف في منتصف ساحة حَجْر حصان مطَّهم أصفر، بفمٍ ملؤه الصهيل،

يقف على قائمتيه الخلفيتين، يمتطيه فارس بعمامةٍ زرقاء، وثياب بيضاء، نصف وجهه ذقن قصير، منتشياً بالنصر شاهراً سيفه اللامع، فخرج الناس وخرجت معهم على أصوات تكبيرات النصر، وراح الفرسان يوزّعون الغنائم على الحاضرين من أهالي حَجْر التي هدأت بعد معركة طويلة توَّجها النصر، فآن للناس أن يحتفلوا بنصرهم حتى الصباح، ثم يعودوا إلى الدكاكين والبيوت.

وفي المساء خرج الأهالي بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم ليدفنوهم، وعن جرحاهم ليطببوهم، ساعتها كان قائد المعركة الدفاعية واقفاً إلى جوار بوابة حَجْر، بعد أن نال منه التعب كل منال، وبصره ينظر في الدماء التي تناثرت على أرض الميدان، وأحاديث النجديات الهامسة من سطوحهن ونوافذهن المحفورة بالزخاف الدقيقة والرسم الملون:

- موقعة نفخر بها فقد أنهاها فرساننا سريعاً.

وأضافت أخرى:

- من يصدق أننا أعملنا سلاحنا في نهار واحد.

وأردفت أخرى:

- شدة الجنود وبراعة الرماة عجّلت بها.

وبعد العشاء أقام أمير حَجْر مأدبة بمناسبة النصر، جلس هو في رأسها وإلى جواره قادة المعركة وأعيانه وحاشيته، وحشد من الأهالي، وفي أطرافها الأخرى جلس الفرسان والمشاة والرماة.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 5

رأيت سَعْدَى وهي تخبز في التنور، وتنظر إلي بنظرات تطفح بالحب والإعجاب، أخبرتها بما حل بالغزاة الذين تنبأت بهم قبل أيام حين كنا نشاهد سباق الهجن، شعرت أنها تريدني أن أتحدث بكلامٍ آخر غير هذا.

واستدرت إلى حجرتي، فشعرت بصوت خطوٍ بطيء ورائي، لأجد سَعْدَى قد انتهت بها خطواتها إلى حجرتي، ففتحت الباب على مصراعيه والنافذة على نهايتها، وبادلتني النظرات الهادئة، فغادر النوم أجفاني، فقلت:

ـ لا نوم الليلة.

ـ لِمَ؟ ألست متعباً؟

ـ بلى.

ابتسَمَتْ:

ـ دعني أعلمك كيف تخبز رغيفاً.

ـ الآن؟!

ضَحِكَت:

ـ بالطبع لا.

فافتعلت ضحكة قائلة:

ـ دعنا نتحدث لوحدنا، وسكبت لي ماء من إحدى الجرار حتى نصف الإناء ومدته إلي:

ـ خذ . بُلَّ ريقك الجاف.

أخذته وشكرتها:

ـ كريمة هي عنايتك.

ـ أنت حي، ما دمت معي.

ـ تبدو الأشياء دخانية مذ عملت هنا.

ـ لم أفهم؟

ـ آلام في أضلاعي وكتفي.

ـ أنت تقضي ساعات لا تستريح فيها.

ـ هي بالفعل.

ـ حاول أن تستيقظ قبل الضوء، فأنت تتأخر فتضطر سيدتي لإرسالي إليك فأوقظك.

ـ لا بد أن أرفع رأسي بما أفعله لأجلي وأجل الآخرين.

ـ ستفعل المزيد، هيا اِلبس ثيابك الخاصة بالنوم، فقد أبقيتها نظيفة ومطوية بجانب فراشك.

سحبت طاولة خشبية مزخرفة الأطراف، ووضعت عليها جرة الماء، وأومأت برأسها وذهبت وجديلتها المقرونة تشاغب ردفها الطري.

وفي الصباح حدث ما لم يكن في ظني ولا من ضمن أحلامي، صِرتُ ناسخاً لسيدتي سقَّانة، علمت من سَعْدَى بعد أن أيقظتني جاسة جبيني برقة لم أعهدها من أحد قط، فتحت جفني، فرأيت صفاء عينيها الفاتنتين، وارتواء وجهها الزاهر العطري، وجسمها المتناسق الريان وكأنه يُحرّض على فعل الحب، رأيت في ركن حجرتي صحائف قد رُكنت فوق بعضها، وطاولة قصيرة غُطيت بجلد مدبوغ، عليها دواة خزفية وأخرى فخارية وقلمان ومحبرة، أُعدّت لمن يعملون في النسخ والخط.

لم أُخفِ فرحي بثقة سيدتي بي، تمكنت مني الحماسة، فأنهيت إفطاري سريعاً، وساويت هندامي ووقفت بخجل أمام باب سيدتي، واستأذنت بالدخول، ودون أن تلتفت أشارت بيدها لأقترب، كانت قد خلعت نعليها ومدت رجليها فوق طاولة قصيرة ماضية في تقليب رسائل وصحف متعددة الأحجام، وبيدها مروحة مربعة من الخوص تحرك الهواء مقاومة حرارة الجو، وحين فطنت لوقوفي الطويل كفّت رجليها، وتركت رسالةً مطوياً بيمينها، وقالت بصوت شاكر:

ـ إياك أن تتوقف عن العمل يا أبا النجاة، فأنت حتى الآن لم يَفُتْكَ شيء، لقد رتبت بعملك عندي الكثير من شؤون تجارتي وزراعتي وأموري الأخرى.

ـ أنا بأمرك سيدتي.

ـ لقد امتحنت أمانتك وإخلاصك والكل هنا يعلم ذلك، وأظننا سنزوجك أيضاً.

فاحمرَّ وجهي، وضاعت نظراتي، وغرقت في حيائي، وفجأة مال رأسها إلى اليمين وضربت بكفيها فخذيها، وهي تضحك بصوت مرتفع جداً:

ـ دعنا من هذا الآن، هل أخبرتك سَعْدَى بما سأكلفك به؟

ـ نعم نعم، وهو مما يشرفني سيدتي.

ـ حسناً، أظنك تجيد النسخ، وقراءة الأرقام أيضاً؟

ـ بالطبع سيدتي.

ـ ستُحمل إليك صناديق بها رُزم من صحف ورسائل وقراطيس، من كل شؤون عملي، عن الممتلكات والبيع والشراء، وتبادل المبايعات.

ونَظَرَت إلى سَعْدَى:

ـ وستشاركك سَعْدَى حتى تنتهي مهمتكما.

ابتسمنا سوياً وقلنا بصوت واحد:

ـ بأمركِ سيدتي.

*

من المساء حملت الرزم، وقربت قنِّينة الدواة الصغيرة الفخارية لأُغذي منها المحبرة الصغيرة الخشبية المأخوذة من شجرة الأثل، والتي استعين بصب الحبر بها ثم أحفظ بها القلم المأخوذ من أعواد القصب، وبمجرد انتهائي من العمل في كل مرة أقوم بمقصٍّ صغيرٍ لقص الزائد والتالف، ورغم جهد ما أقوم به لم أحتج لعدسة التكبير الزجاجية لأستوضح بها الأحرف والأرقام والإمضاءات والهوامش، حيث أني لم أعاني ضعف النظر بعد.

أنهيت نسخ أغلب الرسائل وبعض الكتب والقراطيس، والتي جلها من مكاتباتها مع تجار نجد والحجاز والبحرين، وحين فرغت من نسخ الأخريات التي أملتها علي سَعْدَى، اقترحتُ على سيدتي أن تضع ختماً جديداً خاصاً بها أسفل كل رسالة أو مبايعة في كل قرطاس.

صرت في حجرتي أقرأ المكاتبات بشغف وصبر طويل، فقد كان الأمر محفوفاً ببعض الصعوبة، حين فطنت أن الطي الجاد لبعض الصحف والقراطيس قد أخفى بعض سطورها، ومحى بعض حروفها، بل محى جُملاً بأكملها، خصوصاً تلك الرزم التي مكثت طويلاً تحت أكداس الكتب الكبيرة.

وما شق علي هي تلك الكتب التي قرضت العفونة بعض أطرافها، وابتلعت نصف صفحات منها، خلاف الصحف التي ساحت عليها

الأحبار جرّاء الرطوبة، فعمدت على سد كل هذه الفراغات في السطور وتعويض ما غاب من جمل بكتابة ما ظننته متفقاً مع السياق العام لكل رسالة أو طرس أو كتاب.

ولم تمضِ ليال القراءة والنسخ والخط على طاولة واحدة، حتى جلبت سَعْدَى طاولتين مربعتين آخريين، وذلك بأمر من سيدتي سفَّانة، وفي الليلة التالية دفع الفتيان إلى حجرتي خزانة صحف وكتب، ومكعبات محابر وحزم أقلام، وبعد ثلاث ليالٍ جيء بصندوق له قفل خاص، وأُنزل في ركن الحجرة، وَدُق مشجب ذهبي بارز يسار الباب، فبقيت على هذه الحالة حتى اتسعت دائرة الصحف والقراطيس التي سدت رزمها المكان حولي.

وككل ليلة أنزلت سَعْدَى رزمة جديدة أمامي، ورحت وهي نحلّ خيوطها، ونَصُفّها في ترتيب مُتسق، وكلما تيقنت أن الأقلام المعدة تُناسب الدواة شرعت أنسخ وأخط ما يصلح لمتون الرسائل والعقود، وبخط مختلف ونسخ خاص للهوامش التي ضبطتها خلف الصحيفة أو الكتاب.

مضت ليال طويلة وأنا وسَعْدَى لا نكاد نتكلم في غير الصحف والقراطيس وأحجام الكتب وجودة نسخها، وانتخاب ما يصلح من خطوط لها، أنا أنسخ وهي تقرأ وتشير إلى إخفاقات الخطوط، فغابت بيننا الإشارات العاطفية، فظننت أنها انصرفت عن قلبي، فهي تنهض

سريعاً فور انتهاء عملنا كل ليلة، عدا الليالي الأخيرة، فقد كانت تلتفت عند خروجها التفاتة تشبه الوداع. تبادلنا قبلها الحديث، كلانا يُحدث الآخر عن حياته، أي كان وكيف كان؟

قد حدثتني أنها عاشت طفولتها وصباها في قرية منفوحة الملاصقة للخان، لأبوين نجديين، قضى حياتهما في التجارة بين اليمامة والبحرين، حتى جاء اليوم الذي فتك اللصوص بقافلة أبيها وأمها وهي في طريق الحج، فلم يبق لها غير خالها الوحيد الذي سار في تجارة إلى البصرة واختفت أخباره إلى اليوم، فعرضت عليها عرّافة اليمامة أن تطعمها وتغدق عليها المال، وأقسمت أنها ستكون سخية لو أقامت في قافلتها وعملت طويلاً في خدمتها، لكنها هربت مفلتة يدها من يد العرافة، وطافت أحياء حَجْر، مهرولة بجانب الأبنية الطينية المطلة على وادي حنيفة، سالكة الطريق المفضية إلى ساحة السوق، هناك انتبهت لصِبْيَة يتكاثرون راكضين خلفها، كان فرارها هو بدء ليلة النجاة الأولى والعمل في بيت سقَّانة.

وفي ضحى اليوم التالي، أقبل أحد أعيان منفوحة ساعياً في إقناعها بالعودة، فجالستهما السيدة سقَّانة في فناء بيتها، وتحدثوا طويلاً، همساً مرّة، وغضباً مرّة، وصمتاً مرّة، وثلاثتهم متقرفصون منفعلون، حتى انسحبت سَعْدَى من بينهم مهرولة وحدها في عتمة الأحياء.

ومع حلول الفجر جاءت تشدُّ على جسمها عباءة ثقيلة من الوبر، وقد لبست مِقْطَعاً شديد الزُّرقة من الحرير المطرز بالزري الذهبي، ولم يبن من وجهها غير عينين تعبتين، فتردد لغو كثير على ألسن نساء حَجْر، حول تبني سقَّانة لفتاة مشبوهة، متجاهلين حقيقة الأمر، ليظل أمرها غامضاً حتى اللحظة.

وحَدَّثتها بدوري عن جَوّ، عن بساتينها، وعيون مائها، وقناطر أبواب أسواقها، وازدهار تجارتها كما هي حَجْر، وعن تساقط أهلي تباعاً في طرق القوافل والغزوات.

وبعد أن أنجزت مهمة النسخ والنقل والخط، وأزلت لطخ الحبر عن أصابعي وأنامل سَعْدَى، أمرت سيدتي بأن تكون الأيام الثلاث القادمة مدة توقف تام عن العمل، بعد قيامي بمساعدة سَعْدَى بتنظيم المكاتبات المطوية، وصف الأخريات المفتوحة في صناديق صغيرة، وهكذا تسلمت وسَعْدَى أجر ما قمنا به، فاغتسلت وشذبت لحيتي التي طالت أثناء ليالي النسخ والخط لإعداد ما طلبته سيدتي.

شَمَال غَرب الخَان

في ضحى باردة شمسه، وعبق بالنسيم، بعثتني سيدتي إلى حانوت البزَّاز في سوق حَجْر ليقطع لي قطعاً ملونة من الأقمشة ويصنع لي ثياباً تناسب جسمي وطولي، فوصلت حانوته، ودخلت بعد أن سلّمت بصوت خفيض لم يسمعه، لأجده يشرب من جرة صغيرة، حدَّق في وجهي مستغرباً دخولي وإلقاء تحيتي بصوت لا يُسمع، فأذن لي بالدخول مشيراً بيده المتأثرة بالجدري.

أخبرتني سَعْدَى أن هذا البزَّاز لا يعرف أحداً غير سيدتي، ولا يلتقي بأحدٍ غير زبائنه، لا صلة له بأي جليس إلا العامل على السوق حين يشتري منه أقمشة له ولحاشية الأمير، ولا يكاد يُغلق حانوته مساءً حتى ينصرف إلى المسجد الجامع، ويصلي حتى يقترب منتصف الليل، ثم يعود إلى بيته وينام إلى الفجر، ثم يستيقظ ويتوضأ من ماء

ساقية مزرعة قُرب السوق، ويذهب ليصلي، ثم ينتظر مكانه حتى تُشرق الشمس، فيذهب إلى حانوته مرة أخرى.

كما أعطتني سيدتي سفَّانة عباءة من الوبر مُطرزة الحواف لأبيعها على أي من البزازين الذين اصطفت حوانيتهم منتصف السوق، وأتصدق بثمنها نيابة عنها، فمررت بعدها بحلقة تدريس اللغة والفقه القريبة من المسجد الجامع، لأتجول بين بضائع الباعة الجائلين، الذي بسطوا بضائعهم المتنوعة في الساحة الخاصة بالمسجد الجامع، وكما يظهر أن العامل على السوق والأئمة لم يمنعوهم من ذلك.

طفقت بعدها ماشياً في طرقات حَجْر وأنحائها، ومنعطفاتها الكثيرة، بيوت بُنيت بالطوب الطيني والحجارة الصلبة، وسويت سقوفها بأشجار الأثل، ومن أعلى سطوحها تبرز مثلثات جصية صغيرة بثقوب مزخرفة، قاعدتها للأسفل ورأسها للأعلى.

وصلت شمال البيوت، حيث لم يقطنه إلا القليل من الناس، فأغلبه من الأسوار الخفيضة التي تُربى داخلها الإبل والأغنام، فالكثير من البيوت فيه متروكة، وأخرى مقفلة لسنوات، وعلى جدرانها وأبوابها سطور مكتوبة بالجص، وأخرى محفورة بالحديد، سطور بأسماء أهلها المغادرين، صادفت حينها بائعة متجولة، عجوز قصيرة القامة، نحيلة الجسم، على وجهها خمار رديء بفتوق عديدة، تنادي:

ـ إقط إقط.

فمددت يدي إلى صرة نقود صغيرة في جيبي الأيمن، وأعطيتها درهمين فمدت إلي صرة الإقط وقالت:

ـ عافاك الله يا ولدي.

وما أن ابتعدت عنها خطوات حتى هاجمها ثلاثة لصوص متسخو الثياب، وانتزعوا بضاعتها وصررها، وهي تقاومهم بعصاً قصيرة كانت إلى جانبها، فأقبلت عليهم وقبضت أحدهم من ثيابه مواصلاً لكمه، وصائحاً في وجهه:

ـ أيها الوغد اللعين.

فهاجمني بشراسة كبيرة، وبالكاد انحرفت عن وابل الحجارة القادم إلي من رفيقيه، بينما هي تقاومهما بعصاها وتصيح:

ـ لصوص لصوص.

فتكاثرت الأرجل الراكضة نحوها، وثارت الأصوات وخرجت الرؤوس من وراء النوافذ ذات النقوش الناعمة، والأبواب المصنوعة من جذوع الشجر لترى ما يجري، وتصاعدت الشتائم على رؤوس اللصوص، وأُوصِدَت عليهم الطريق، وأُمطِرُوا بوابل من الضرب الكثيف حتى سقطوا أرضاً، وأُرسلوا بعدها مقيدين إلى قاضي حَجْر، بعدها شعرت بألم بين كتفي وعنقي، ثم بدم سريع سال على كتفي ولوث ثيابي الرمادية، فسارع من حولي وأغلقوا الجرح، وأوقفوا خيط الدم، لأسمع أحدهم يقول لآخر:

ـ إلهي، هذه الحوادث صارت لصيقة هذه الطريق، إما بسرقة الجياد، أو برمي النار داخل أسوار البهائم، أوالاقتتال بالأسلحة البيضاء والعصي، أو سرقة العابرين.

فقال آخر:

ـ امتنعوا هذه الطريق حتى تتخذ الشرطة عملها.

نهضت نافضاً رأسي من التراب، وكمشت من الأرض كمشة الحصى وقذفتها نحو اللصوص وهم مأخوذون:

ـ لن تكونوا رجالاً بفعلتكم هذه.

وانحنيت ثانية وكمشت أخرى وقذفتها نحوهم أيضاً:

ـ لن تكونوا رجالاً بفعلتكم هذه.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 6

نَظَرتُ إلى الدرب العابر أمام الباب، ولم أَرَ شيئاً عدا قططاً سائبة، وعرباتٍ تجرّها النوق تمرّ بطيئة، ورهطٌ من غلمان الخان جُلوس يتضاحكون من طُرفة بالغة في فُحشها، قرأها أحدهم من رقٍ منزوع.

ببطء أغلقت الباب ورائي، ودخلت بخطوات بطيئة حتى باب حجرتي التي كانت صامتة تماماً، إلا من صدى الصُحف والقراطيس والكتب المقلوبة التي حركها الهواء القادم من نافذتي الصغيرة المحاطة ببرواز من الحَجَر، فسيدتي قد خرجت صباحاً في شأن وسفر، هي وبعض فتيانها وفتاتيها، حَيّتني سَعْدَى حين رأتني، أقبلت متلفعة في خمار رقيق تعبق منه رائحة أخذتني سريعاً، ومن خلف كتفها تنظر فتاتان وعلى كفيهما بقايا العجين، وبان أن ما جرى قد سبقني إلى هنا ثم سألتني:

ـ هل تأذيت؟

ـ قليلاً، المهم أنهم طُرِدوا وسلمت البائعة الضعيفة.

ـ وما الذي قادك إلى هناك؟

ابتسمت لها قائلاً:

ـ الحظ.

ساوت جديلتها المقرونة قائلة:

ـ إياك أن تبحث عن المتاعب ثانية، فالأوغاد لم يموتوا بعد.

اتسعت ابتسامتي ووضعت يدي على جرحي وقلت:

ـ خائفة؟

ـ مم؟

ـ علي؟

ـ لا . فقط أَطمَئِن، وعليك أن تتوقف عن هذه الأعمال غير المريحة.

ثم ذهبت وتوقفت بعد خطوات قائلة مُنبِّهة:

ـ لن أُعلم سيدتي بالأمر.

ـ هذا من كرمك سَعْدَى.

ـ المهم أن تتوقف أنت عن تكرار ذلك.

ثم أسرعت خطواتها مهرولة نحو التنور العريض، وغمست يديها في وعاء العجين وراحت تُعده للخَبز، فتَنَاوَلْتُ غصناً يابساً ووضعته تحت ركبتي اليمنى، وشددت طرفيه فطقطق منكسراً، ورميت الكسر المتناثرة جانب التنور، عندها حانت منها التفاتة عاجلة إلى الوراء،

وعادت تكمل العجن بحركة مضطربة، ليرتفع لحظتها صوت طحن الدخن من منحاز الخشب المقابل الذي تتقابل عليه فتاتان من فتيات سيدتي وهما تمسكان بيد الرحى، ويطحنَّ في حركة معاكسة.

حَجْرُ اليَمَامَة ـ الطُّرُقَاتُ وَالسَّاحَات 2

مرت أيام دون عمل، فقد أغلقت أسوار حَجْر أبوابها حفاظاً على أمن ساكنيها، وانتشر الجنود والفرسان، وهم يرتدون ثياباً تقيهم الطعن والرمي، وأخذ الرماة أماكنهم على السطوح والشرفات ونوافذ الأبراج، كما أُشعلت النار في كل مكان من المدينة، وصدر أمر بنقل السجناء إلى سجن أكثر أمناً وسلامة من الأول.

طاف حينها أمير حَجْرٍ الأحياء ممتطياً صهوة جواده الأبيض المطهم، ذو العظام الجليلة، بجواره يسير فارسان يعتمران عمامتين شديدتا البياض بعصابتين سوداوين، عبروا الساحات والأزقة والممرات طويلاً، وساروا بجانب أبنية طينية متراصة، يتفقدون الناس والدواب وحركة الحياة وسلامتها.

تجاوز الأمير بجواده وصعد رابية يحيط بها الحرس كقطيع الذئاب، عن يمينه بيوت حَجْر، وعن شماله وادي حنيفة، ومن حوله عبيده

وأتباعه وحاشيته، زفر زفرة الهائج وأمر قائد جيشه أن يدوم الاستعداد للدفاع عن حَجْر، فرأى السماء وقد غرقت في غمام محمل بالخير، فتنادى من حوله بالأدعية والصلوات.

وكثيراً ما كان أهل حَجْر يرون الأمير يرنو إلى ماء وادي حنيفة، ويطيل الوقوف عنده والنظر في أسوار حَجْرٍ وحصونها وبهاء نخيلها، رأوه يكثر النظر في الناس وكأنه يعاهدهم بالخير والأمان.

وفي منتصف الليلة الأخيرة، نادى المنادي بزوال الخطر عن حَجْر، فاصطف الناس يحيون ويهتفون للرماة والفرسان الذين قدموا حياتهم لحماية أرضهم، إلا أن نداء المنادي انتهى متبوعاً بعاصفة ترابية غطت الطرقات والسطوح والممرات الضيقة، ثم ظللتنا سحابة سوداء أرسلت قطراتها الأولى على رؤوسنا، فمرض أحد الرماة فجأة واشتبهوا أنها حمى قاتلة وقد تكون معدية، ودرءاً للعدوى، نقلوه إلى خيمة خارج أسوار حَجْر، وجهها عكس اتجاه الريح، وتركوا قربه الكثير من الطعام والشراب، حتى استعاد عافيته بعد ليال، وعاد مشياً إلى المدينة وصوته يرتفع بالغناء الحماسي.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 7

في صباحٍ دافئ ندي، بعد عودة سيدتي سفَّانة من سفرها، أيقظتني سَعْدَى وقالت لي دون أن تسبقها ابتسامتها المعتادة ونظارة ملامحها الفاتنة، وكأني ارتكبت جريرة لن تغتفر:

ـ سيدتي تريدك.

ـ الآن؟

ـ لا . ربما غداً.

ثم بصوت ساخر:

ـ بالطبع الآن.

دخلت سيدتي سفَّانة فجأة، فتراجعت إلى الوراء، بعد أن تقدمت إلي بخطوات سريعة رافعة سوطها الخيزران وهوت به عليّ مراراً، فرفعت ذراعي لأحمي وجهي، وهي تصرخ:

ـ سوف آمر بجلدك، وسأتولى أنا ذلك أيضاً.

فصرخت بصوت متوسل:

- سيدتي سيدتي.

- أكان عليك أن تجرنا إلى معارك خارجية؟

ثم زفرت بالهواء المحشور في صدرها وراحت تمسح عرق وجهها بباطن يدها اليسرى، بعد أن ألقت السوط جانباً:

- فوراً اغتسل والبس ثيابك النظيفة الآن، واركض إلى دار الإمارة، وأبلغ شرطتها بالأمر، قبل أن يستغل أندادي هذه الفرصة، وَيَشُون بي عندهم.

- وما شأنهم؟

- من تقصد؟

- الأمير وحاشيته، أقصد شرطته.

- قلت لك اغتسل والبس ثيابك النظيفة، وافعل ما أمرتك به، هيّا هيّا.

حَجْرُ اليَمَامَة ـ دَارُ الإمَارَة 2

خلا قلبي حينها من كل شعور، وفعلت ما أمرتني به، وحين وصلت إلى دار الإمارة، وجدت رجلاً يجلس قرب النافذة الرفيعة، سمين يرتدي ثياباً ضيقة، وجهه شديد الحمرة، وشارباه قصيران، وفمه صغير مقارنة مع ذقنه، وتحت عينيه ارتسمت هالتان داكنتان صغيرتان، سَلّمت ولم يتحرك من مكانه، فقط ردّ السلام برفع يده وبان خاتمه اللامع الظاهر في إصبعه الخنصر، ثم راح يقرأ من كتاب صُحِفَ بالجلد، ولم يهتم لدخولي، فجالت عيناي في المكان لتقع على آخر يقف مستنداً إلى باب الحجرة، ويحرك بيديه الاثنتين ما لا أراه، ومن ورائه صوتان هامسان:

ـ قافلتان تقتربان من حَجْر.

فأمرهما:

ـ اذْهَبا واستطلعا الأمر.

وكمن انتبه لشيء ما، التفت سريعاً ونادى:

ـ أنت.

رفعت رأسي وجحظت عيناي نحوه، وسأل:

ـ لقد مرّ وقت وأنت تقف مكانك، ما تريد؟

أطرقت دون أن أتحدث بكلمة، منتظراً سيل التوبيخ الذي سيقتلعني من مكاني، إلا أن الصمت كان الحاضر الوحيد حينها، ثم نادى:

ـ تعال إلى هنا.

خطوت متعثر الخطى نحوه وهو يقول:

ـ أما ترى أن أخلاقك اللعينة تصلني دون أن أراها بنفسي؟

تأتأت وبالكاد قلت:

ـ أنا في ندم كبير يا سيدي.

ـ هل غرقت في شعور الخوف بعد الذي فعلته؟

أرجع الأول كرسيه إلى الخلف وحكّ الأرض مصدراً صريراً منفراً، فَرُحنا ننظر إليه حين صفع الطاولة قائلاً:

ـ من تراه ليس المطلوب هنا.

واختنق الثاني بكلامه الأول، حتى خرجت جملته التالية متقطعة:

ـ عفواً نحن لم نقصد الإساءة إليك، ولكننا قبضنا بالأمس على ثلاثة فتيان سطوا على بائعة جائلة، ودونوا في اعترافاتهم أن رابعاً كان وراء

تحريضهم بعد أن وعدهم بمكافأة مجزية، ولولا تدخل العابرين من الناس وتخليصها منهم، لكانت نهباً سريعاً لهم.

قلت له بعد تردد:

ـ لكني وقعت في مشكلة مع سيدتي.

ـ من سيدتك؟

ـ سفَّانة.

كنت وقتها مطرقاً لا أنظر إليه بل أسمع ما يقوله فقط، وعيناي تجولان في الأرض ويلكزني شعور بأني شخص سيء جداً، رغم أني لم أقم بعمل سيء، وحين هممت أن أبلغه بما وقع قبل أيام، قال قولاً أشعرني بالارتياح حينها، ورفعت رأسي فرحاً وشموخاً حين أمرني:

ـ أبلغ سيدتك أن رئيس شرطة الأمير يشكرها على اختيارها الجيد لك وجعلك من فتيانها حيث اتصفت بالخير وفك الضعفاء من اللصوص والمجرمين.

ثم تقدم خطوتين ورأيت عينيه تهللان وترحبان بالعمل الذي قمت به، فربت على كتفي وقال بصوت فخور:

ـ بإمكانك الانصراف الآن وأنت في زهو فعلك الكبير.

فغادرتهما أمشي مشياً سريعاً، وعدت إلى حجرتي وبالكاد نمت تلك الظهيرة دون أن آكل أو أشرب شيئاً، ودون علّة كأن جسمي قد انسدت مسامه عن استقبال أي شيء حتى الهواء.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 8

قبل أن يضع الصباح يديه الطويلتين على سطوح البيوت، ويضيء عتمة الطرقات، استيقظت على أصوات فتيان سيدتي وهم يتراشقون بالشتائم، ويعلكون بأفواههم سيء القول، وراح عدد منهم ينقلون لسيدتي ما كان من الآخرين فتفرقوا حين صاحت بهم سيدتي بالتوقف، وشرعت مصراعا باب البيت على اتساعهما غاضبة:

ـ ليذهب كل منكم إلى عمله، هيّا هيّا.

عندها خطر لي خاطرٌ مخيف، أحسست بارتباك في دمي ورجفة في أطرافي، أتراها ستعاملني مثلهم بعد ما كان مني قبل أيام حين انقضضت على اللصوص الذي هاجموا البائعة الجائلة؟ أخفيت وجهي بين كفّي، وطأطأت على صوت اقتراب خطواتها من باب حجرتي، فطرقته طرقات ناعمة برؤوس أصابعها:

ـ ألم تستيقظ بعد؟

رفعت رأسي بسرعة وقلت بصوت يطلب الصفح:

ـ بلى بلى سيدتي، قادم إليك الآن.

شعرت أنها قبلت قولي على أنه اعتذار على ما يبدو.

فسارعت قائلة:

ـ وراءنا عمل كثير، إياك أن تتأخر، هيّا.

ـ نعم نعم، ها قد انتهيت من تبديل ثيابي، والآن سأخرج.

*

في الليل وبعد انقضاء نهار ثقيل بالعمل، تسللت إلي سَعْدَى وهي في غلالةٍ فضاضة بلون الزهر تبين من خلفها لون حلمتيها، والتي تعبق برائحة العطور الزكية المستخرجة من خلاصة الأعشاب، وأنا أُدوّن وأنسخ ما بقي من رسائل سيدتي، وشرعت تساعدني بطِّيها وصفِّها بشكل مُنظّم داخل صناديق خشبية صغيرة مخصصة لها.

في الليال الأولى لأعمال النسخ والخط الكثيرة، كانت سَعْدَى تجلس جواري وأنا أُعْمِلُ الأقلام وأُقرّب المحابر حتى يشارف نصف الليل، ثم تنصرف بعد أن تودعني بدلال:

ـ نَم يا أبا النجاة، لقد باعك الجديسي بخسارة لسيدتي سفَّانة، وها قد سعى إليك حظك الكبير بقدميه، لتكون كل يوم أقرب إلى سيدتي من بين فتيانها.

وخلدت بعدها نائماً في فراشي الضيق وأنا أفكر بعمقٍ في حديثها الأخير، وأتذكر ما عانيته من مرارة حين كنت أعمل لدى الجديسي، وكيف أني في رِقِّه ذقت الأسف والألم اللذين زالا ببيعي إلى سيدتي سفَّانة، ليبدأ فصل جديد في عُمري.

*

كلما استيقظت سيدتي سفَّانة صباحاً تسألني عما تم إنجازه البارحة، ثم تأمرني بنقل جِرارٍ مليئة بعسل التمر وأخرى مليئة بالدخن، لأحمل كل واحدة منها إلى حجرة مخصصة في الداخل، وأمرت ألا ينقلها أحد من فتيانها سواي، بدا ذلك اعتيادياً كل ليلة، حتى قالت لي ذات ليل:

ـ أتمنى أن أمتلك ربع مهاراتك.

لم تكن سيدتي سفَّانة امرأة عادية من نساء حَجْر، فأبوها من كبار تجار نجد، أخبرتني سَعْدَى أنه يمتلك مساحة هائلة بأكملها من مساحات الزراعة والرعي والتجارة في حَجْر، ولكنه يعيش بعيداً عن ذلك في قرى الفِلْج، بعيداً عن حَجْر مسير عشرة أيام بلياليها، فيحل نادراً ليرى ما تم من أوامره التي يرسلها إلى وكيل أعماله، أخبرتني أنه كان وحيد أبويه، فقد ورث عنهما خيراً كثيراً، بساتين وقطعان إبل صفراء وحمراء، وقطيع أغنام كبير من سلالة نجدية ذات شعر أسود يغطي كامل أجسامها مع رؤوس وأطراف بيضاء، فهذه السلالة

النجدية من الأغنام لها قدرة كبيرة على تحمل مناخ نجد الصحراوي الصعب، تكاد من كثرتها تفيض منها الوديان والهضاب، حينها برزت سياسته التجارية وكثر وكلائه في قرى اليمامة، واللافت بين كل هذا أن سيدتي ترمّلت وهي ابنة ثلاثين، بعد أن اصطاد المرض زوجها العقيم، وهو في طريق القوافل التجارية، فطمست من حياتها فكرة الزواج من بعده، وعاشت لتجارتها السخية وأعمالها الخيرية.

حَجْرُ اليَمَامَة ـ الطُّرُقَاتُ وَالسَّاحَات 3

أذاع نهار العيد ضياءه الفريد في صحاري نجد وقراها، وارتدت نساء حَجْرٍ فاخر اللباس الناصع البهي، وخضّبن بالحناء العبق أصابع حُلّيت بخواتم ذهبية، ومعاصم أضاء بياضها، واستدارت عليها الأساور، وازدانت نحورهنّ المشرئبة بالقلائد الزاهية، وكُرَات الخرز الذهبي، ثم هيّأن حناجرهن للغناء، وتناقلن على ألسنتهن الزغاريد الصاخبة.

حِسَان بأجسام رشيقة قليلة الامتلاء، وبأعين ألهمنها بكحل مثير أعاد النعاس إلى أجفانهن، وبشعور مصبوغة من جذورها، وحناء مرسوم على أذرعهن الدقيقة، ممتدٌ إلى ظهور أيديهن الطرية، ومن سوقهنّ إلى أقدامهنّ الصغيرة، أقمن عيداً جنونياً بعد أن ارتدين ثياباً فضفاضة، ووضعن على وجوههن زينة هادئة، ثم فككن شعورهن وتركن ضفائرهن المخضبة بالبخور تُشاغب طراوة أردافهن.

خرجت جموع الناس باكراً، حين تحرك موكب الأمير من دار الإمارة باتجاه الساحة الكبيرة قرب السوق، وذُبحت الخراف ونحرت الإبل، وخرج الصبية إلى الطرقات، متفرقين في طرائق الفرح المتنوعة بالعيد، وتقدم أمير حَجْر وحاشيته نحو الممر الطويل الذي يصل بين مدخل السوق والساحة حيث ترتفع أعمدة أسطوانية طينية عالية، بينها انتشرت الفرق الراقصة، وكان بجانب أحد أعمدة الساحة بعير أبيض ضخم معقول بحبال غلاظ، فناولوا الأمير السكين الطويلة ليسمي وينحر، وحين طار الدم بكثافة، أطلقت النساء الزغاريد الطويلة، وأرسل الفرسان صيحات الفرح، ونادى الفتيان بالهتاف، وفي طريقه سائراً إلى ساحة الرقص الشعبي، استقبله الناس بالدعوات، فلوح لهم بيمينه وهنأهم بالعيد، مشيراً إلى عجائز يتبسمن له، ونساء يلوحن له.

هناك طبول قُرعت لبدء الغناء بالعيد، ورجال يرقصون الرقص النجدي الشعبي، فتراجع الناس إلى الوراء حتى اقترب الأمير في لبس المرودن وهو لباس أساسي خارجي للرجل، ذو الأكمام الواسعة مثلثة الشكل، المصنوع من القطن أو الخام، واعتمر عقالاً مقصباً رباعي الأضلاع له عقد صغيرة بينها عصائب طويلة كثيرة الزري، وشدّ حزاماً جلدياً يزهو عليه خنجر ثمين، حينها قرأ خطبته السنوية ثم فُتحت أبواب سور حَجْر، وخرجت صفوف من الرجال المتوشحين بثياب بيضاء فضفاضة ذات أكمام طويلة تقصر قليلاً عن أقدامهم، يتقدمهم فرسان

على صدورهم أحزمة سود محشوة برصاص البنادق، وتلمع الخناجر من أحزمة تلف أوساطهم، وهم يرفعون رماحهم من فوق خيول مسرجة بسروج حيكت من الجلود السميكة الملساء، وعمائمهم ناصعة بيضاء تُزيّنها عصائب رباعية الأضلاع لها عُقَد صغيرة بينها عصائب طويلة كثيرة الزري، حرّك حينها الهواء مشاعر النساء اللواتي تناثرت شعورهن على أثوابهن المطرزة بالزهر، وهنّ يرقصن على سطوح البيوت، وقد تزيّن بكامل زينة العيد.

ارتفعت أذرع الرجال القابضين على السيوف، ذوي الأردية الطويلة الملونة المطرزة، وثياب الزبون المفتوحة من الأمام والمصنوعة من الجوخ الكثيف أو الصوف، وراحوا يلعبون بحركات منتظمة، تتوسطهم الراية النجدية بطول ثلاثة أمتار يحملها أحدهم بيده اليسرى، واضعاً طرفها الأخير على عنقه، مستمراً في مشاركة صفوف العارضين في الميدان، متناغمين مع قرع حَملة الطبول الكبيرة والصغيرة، والتي يتقدمها شاعر يلقي بصوته الحاد قصيدته على الصفوف، مُتولِّياً نقلهم من مقطع إلى آخر، وهم يتقدمون عدة خطوات إلى الأمام.

وقبل الظهيرة أقيم حفل استقبال لأمراء قرى اليمامة بعد أن حضروا ليهنئوا أمير وأهالي حَجْر بالعيد، حيث أُعدت الترتيبات لهذا الفرح الكبير، كنت ضمن حشد المهنئين والفرحين بالعيد، فصحت بصوتٍ عالٍ للأمير:

ـ فخورون بك أيها القريب منا.

ثم انصرف الناس في شؤون الحياة اليومية منخرطين في العيد، أما أنا فقد قمت بكل شيء، رقصت الرقص الحربي، ولوحت بالسيف، وضحكت للأهالي وهنأتهم، كمن يحمل رسائل الفرح ويهديها، فتكررت سباقات الهجن والخيل يومها، وخرج الناس إلى الأودية والساحات.

لقد نثر العيد زهور ضيائه على مُدن اليمامة، التي صنعت شكلها الخاص، ارتفاع أسوارها، ومعمارها المبني من الطوب الطيني، حيث اتخذ أهلها في جدرانها حوانيت وأروقة، بسقوف عالية متقنة بجذوع النخيل وأعرافه المشطرة، بنيان مربع بحدود مثلثة الأطراف، ونوافذ رفيعة مقنطرة وبارزة ذات نقوش ناعمة وألوان هادئة، وفي قلب كل بيت سلم يؤدي إلى السطوح المقصورة على الأطفال والنساء.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 9

صباح العيد الثالث، استيقظت على طرقات سَعْدَى تخبرني بضرورة موافاة سيدتي سفَّانة في حجرة الضيوف، وهناك وجدتها جالسة بين ثلاثة من رُسل أحد أعيان جَوّ، نظروا في وجهي فور طلبي بالدخول، وكأنهم بنظراتهم يتنظرون مني اعترافاً، ولكنهم كانوا خلاف ما ظننت، قال أولهم:

ـ مضطرون لأخذ أبي النجاة.

ـ إلى أين؟

ـ إلى جوّ.

كان كلامه بلا سبب أو معنى، وما شأني بهذا الطلب الذي يلزمني بالذهاب إلى جوّ؟ أَأُباعُ لسيد جديد؟ كما فعل الجديسي قبل هذا؟

ظلت سيدتي سفَّانة تنظر في صمت نظرات استفسار، ثم أطرقت صامتة وبعد لحظات رفعت رأسها وأومأت بقبول طلبهم، وأشارت لي بالقبول، فقلت طائعاً:

ـ إني خادمكِ وخادمهم.

فالتفت إلي أوسطهم مرحباً:

ـ وضيفنا أيضاً.

ثم التفت ناحية الآخَرَين:

ـ ما بال ضيفنا في خجلٍ منّا.

طأطأت رأسي وقلت:

ـ دعوتك لي بالضيف هي من حسن حظي، كما . . .

قاطعني أحدهم:

ـ ونفضل أن تذهب معنا وسيكون لك استقبال خاص وهام في حضرة سيدنا في جَوّ.

وأضاف الآخر:

ـ أي الخطوط تجيد؟

ـ جُلّها سيدي.

ـ كم تحتاج الصحيفة من الوقت لتملأها؟

ـ لحظات ربما تزيد.

ـ أنت حاضر في ذاكرة الناس بحسن خطك وسرعة نسخك.

ـ هذا من فضل الله.

استزادت منهم سيدتي مستبينة:

ـ من دلّكم عليه؟

ـ طبيب من جَوّ، كان يطبب الجديسي، ورآه في خدمته.

ـ وماذا قال؟

ـ قال أنه رآه حين شرع يخطّ صحيفة للجديسي الذي بدوره ناولها للطبيب، وهاله كم هو ماهر في النسخ، متمرس في الخط، سريع في الكتابة.

فأردف الآخر:

ـ ومما سمعناه أدركنا أننا وصلنا إلى الشخص الصحيح.

ثم نهض ثالثهم وشدّ يديه على عضدي:

ـ نِعم الرفيق يا أبا النجاة.

ونظروا في بعضهم وابتسموا، ونظرت إلي سيدتي فأشارت لي أن أرافقهم وأنجز ما طلبوا.

وعند الضحى امتطى الثلاثة أحصنتهم، وامتطيت حصاني وتبعتهم إلى جَوّ.

جَـوُّ اليَمَامَة ـ دُونَ جَبَلِ الدَّام

بعد مسير ليال دعكها الشتاء بكفيه الثقيلتين، عبرنا من تحت القنطرة المزخرفة لبوابة جَوّ، حتى صرنا قرب جبل الدَّام، ونزلنا وتوضأنا لصلاة الفجر، وحين كبر للصلاة، مرقت في مخيلتي كيف سيكون حالي عندهم، وهل أعود إلى سَعْدَى أم لن أعود، وبعد فراغنا من صلاتنا، هرع أحدهم إلى حصانه، وأخرج من خرج طويل صحيفة، وجاء بها ثم وضعها على ركبتيه وراح يقرأها بصوت خفيض، ثم مدّها إلي قائلاً:

ـ اقرأها الآن لأسمعك.

ركضت عيناي على سطور الصحيفة وقرأتها بصوت رتيب، وكلما أمرني برفع صوتي أجدني فشلت في رفعه لوقت أطول، عندها سحب الصحيفة من يدي ضاحكاً:

ـ هيا بنا.

عبرنا بجانب مدافن كثيرة عند سلسلة جبل الدَّام، الشبيهة بالرجوم الحجرية، من داخله أيضاً مدافن بالمئات، حيث مقبرة سويت على هيئة مستطيل من أربعة ألواح من الحجر الجيري، وأُحيطت برجم كبير ليغطي أسفل المستطيل.

مع باكورة الفجر المنعش، غير بعيد من جبل الدَّام رأيت قطيع ظباء قد استيقظت ليومها الجديد، من دونها رأيت الظبية الحمراء حين أخرجت من منخريها الصغيرين زفيراً أثار التراب الرطب بين ساقيها الأماميتين، ثم ضربت القاع بحافرها الأيسر الصغير، وثنت جذعاً رقيقاً بطرف قرنها الأيمن، وتركه يرتطم في وجه الهواء، وحين وصلت قعقعة خيولنا تفرقت هاربة في جماعاتٍ صغيرة.

وبعد وقت اقتربنا من طرقات جَوّ، وبدأ ازدحام الناس، فهب عطر سَعْدَى، لا أعلم من أين جاء، وكأنه عاصفة عصفت دفعة واحدة، وبصوتي الشجي الغائر في التعب استدعيت من ذاكرتي قول أعشى اليمامة:

أَسهو لِهَمّي وَدائي فَهيَ تُسهِرُني
بانَت بِقَلبي وَأَمسى عِندَها غَلِقا
يا لَيتَها وَجَدَت بي ما وَجَدتُ بِها
وَكانَ حُبٌّ وَوَجدٌ دامَ فَاِتَّفَقا
لا شَيءَ يَنفَعُني مِن دونِ رُؤيَتَها

هَل يَشتَفي وامِقٌ ما لَم يُصِب رَهَقا
صادَت فُؤادي بِعَينَي مُغزِلٍ خَذَلَت
تَرعى أَغَنَّ غَضيضاً طَرفُهُ خَرِقا.

فجذبت أسماعنا أصوات السواقي الطافحة بالماء، وانبعثت رائحة النخيل، وبدت السماء أقل نجوماً، فارتجفت نفسي حين بانت غير بعيدٍ بيوت جَوّ.

أَحَدُ حُصُونِ جَـوّ 1

بَرَز حُرّاس يدفعون الناس ليفسحوا الطريق للرجال الثلاثة، حتى انتهينا إلى بوابة من بوابات حصون جَوّ، وشد بصري مشهد شخصت إليه أبصار من حولي، جثمان بلا رأس يتدلى من بوابة الدخول، لرجل أسمر، نحيل بأثواب ممزقة، أرسل الرجال الثلاثة إلي نظرة مرتبكة فافتعلت عدم التركيز في شيء، وأنا لا أفهم ما يجري هنا، وهل يحق لي أن أسأل أو استفسر؟ بالطبع لا.

وقفنا بعد البوابة بأمتار، وجرَّ كل منها حصانه وربطه في مربط الخيول، المقابل للبوابة، سار الثلاثة ولحقت بهم، ودخلوا بعد أن أوقفني الحرس وبقيت معهم أتأمل المكان والمساحة والعابرين، رفضت أن أتبادل الكلام مع أي منهم، حتى أدخلوني إلى قلب الحصن، فسألني الجالس في صدر الديوان:

ـ هل تعلم لم جئنا بك؟

ـ لا أدري!

وهو يرفع القدح ليشربه التفت إلى آخر:

ـ ألم تعلموه؟

ـ أتقصد صحف المعاهدات؟

أومأ بالقدح:

ـ وهل غيرها؟

ـ لقد قمنا بتجهيز المكان، وتنظيم الأرفف، ووضع الأحبار، وصف الأقلام، ليقوم بعمله من الليلة إن رأيت ذلك.

نهض وأولانا ظهره وكأنه يتأكد من تجهيز قريب منه، ثم استدار:

ـ هل أنت نجديّ؟

لم أجد ما أجزم له به غير جوابي:

ـ نجديّ حُرّ، استحال عبداً بفعل الغزوات واللصوصية.

ضَحِكَ فتبعه الآخرون ضاحكون وقال:

ـ يبدو أنك أحببت ممزاحتنا!

ـ . . . .

ـ كنت تعمل عند مَن في جَوّ؟

ـ كنت في خدمة سيدي الجديسي، تاجر الأقمشة والحبوب والعطارة.

ـ نعم نعم.

ثم استدار وعاد، وفي تثاقل استند بظهره، وجلسوا كلهم بعد أن أشار لهم، وقال:

ـ اطلبوا له الطعام والشراب، وهيئوا له حمّام الاغتسال، وفراشاً وثيراً، ومأوى يليق بكاتب السيدة سفَّانة.

بعد هذا، نقلوني إلى مقرٍ منظم نظيف، لم أكن أصدق أني سأنام وأصحو في هذه الحجرة الفسيحة الفاتنة المؤثثة، وتحت هذا السقف الجذاب، وأي ناسخ قد حظي بهذه الفرصة الذهبية، ومن لا يتوق لمثل هذا المكان، بعد وقت، جيء لي بالطعام الشهي الموزع على صحائف لامعة، وكؤوس من الشراب العاطر المثير لشهية الشرب، ووضعوا لي وسادة محشوة بالريش، وصرت أتخيّر كل ليلة المكان المناسب في الحجرة لأنام فيه، وشُدّدت الحراسة على باب حجرتي لضمان عدم دخول أحد غير المأمور بنقل الكتب والصحف بعد نسخها وتنظيمها.

وقضيت يومان بليلتيهما آكل وأشرب وأغتسل ولا أحدث أحداً، وأنسخ وأخط وأزخرف طوال النهار، وأُدقق إلى منتصف الليل، قراطيس وصحف لا يقرأها غيري، كان أغلبها رسائل بعث بها ملوك من بلاد بعيدة، ومعاهدات عسكرية، وأخرى اقتصادية، وصحف أُبرمت لتنفيذ اتفاقات عدة، والكثير الكثير.

الفتاة التي كانت تقتسم معي الغرفة بسقفها وحيطانها وهوائها ووسائدها، لم تتكلم معي كلمة واحدة طيلة الليلتين اللتين قضيتها في النسخ والقراءة، كلما طلبت منها قرطاساً أو صحيفة تأتي بها في صمت، وتأخذ في صمت أيضاً ما جهز من رزم منسوخة، رسائل عدة كانت مختومة وغير قابلة للفتح إلا بسرية، وعهود أمروني بأن أضع قَسَمي عليها، وكأن ذلك القسم قيد وضع في معصم ساقي، أو سجن لن أغادره أبداً، عدا كلمات قليلة حفظتها لتكون كلمة السر حين أعود إلى سيدتي، فهي مفتاح قيامي بمهمتي على أكمل وجه.

ركضت عيناي على الصحائف والمكاتبات؛ سطور تفشي أسراراً، وسطور بأسماء فرسان مطلوبين، وعناوين لكتبٍ من مذاهب عدة، وقراطيس لمعاهدات لا تُحصى، ورسائل لا يُصدق ما باحت به، وبعد أن أنهيت ما جيء بي لأجله، شعرت أن المسافة بيني وبين أمراء نجد باتت أقصر، ولكل أمير شيء أقوم به، قد يثير قلقهم في البداية، إلا أنهم يستريحون لي بعد أن أقدم لهم براعتي في نسخ وخط ما طلبوه وما أمروا به.

أَحَدُ حُصُونِ جَـوّ 2

قضيت ليلتين تامتين أنقل الأكياس والصناديق الصغيرة المترعة بالصحف والكتب والقراطيس التي أُنهيت إلى ركن الحجرة، ومضيت في عراك مع الرزم الطويلة، مُصنِّفاً ومُرتباً وناسخاً، إلا أن بعضها كان متكوماً ومختلطاً، وفي إبحاري بين خطوط الصحف، واستدارة الدواة، وحركة الأقلام، ما برح طيف سَعْدَى يصاحبني، في حَجْرٍ وفي جَوّ، إذا نسخت رأيتها في أدق الخطوط، وإذا غمست الأقلام في عميق المحابر خرجت أطيافها راكضة بزهوٍ على رؤوس الصحف وحواف القراطيس.

*

ـ هي بنا، اتبعني.

قالت الفتاة جملتها الوحيدة هذه، بعد أن أنهيت وإياها تنظيم وصف الصحف والرسائل والكتب والقراطيس في صناديق جاء بها الحرس

أول مجيئي، حلقت عيناي طويلاً في فضاء الحجرة، شعرت أني طائر ألف هذه النعمة التي منحت له ليلتين تامتين، وقفت مكاني بلا حراك حتى تجاوزتني، لتلتفت عند الباب المُزَيَّن بالزخارف والنقوش خارجة:

ـ ما أصابك؟

ـ المعذرة لقد شردت قليلاً.

ثم تبعتها، وفجعني خارجاً رهط من الحرس يجرون فتيان من شعورهم لهم صراخ عالٍ، ثم دفعوا بوجوههم لترتطم بالحائط وتنتثر دماؤهم، وكأنهم يتمنون ضربة الرحمة ليستريحوا.

وفي قاعة الطعام، على المائدة جلس الرجال الثلاثة أنفسهم الذين اصطحبوني من بيت سيدتي سفَّانة، أخبرتني الفتاة لحظتها:

ـ هذه الوليمة مكافأة أوَّلية لك، وتقديراً لأنك مندوب السيدة سفَّانة إلى جَوّ.

ثم أضافت:

ـ هل تشم؟

فميزت رائحة الطعام في الطبق الموضوع أمامي:

ـ رائحة زكية لكن ما هو؟

ـ لحم ضأن مشوي مدهون بالعسل.

قالت ذلك، فرفَعتُ قطعة اللحم إلى فمي، حتى غطت نصف وجهي السفلي، وكانت عيناي من فوق اللحمة الكبيرة كعيني سبعٍ ظفر بفريسته بعد جوع طويل.

امتدت الأيدي إلى ظهر الضأن الطري، وتناهشت لحمه سريعاً، فارتفعت أصوات المضغ وهو يَهرِسُ اللُقَمَ بأسنان مُتعجِّلة، وبعد وقت وضعت العظمة الكبيرة دون لحم، إلا القليل، وكانت أعين من حولي مليئة بالرضا، فاقترب مني خادم المائدة ووضع الخبز أمامي فوق طبق الشواء، فقبضت على الرغيف الساخن ونثرته على الشواء، وافترسته، بينما الفتاة تقول في ضحك:

ـ عاقبتك طيبة يا أبا النجاة.

وابتسمت ابتسامة ساحرة، وبعد أن فرغنا من طعامنا، خرجنا من قاعة الطعام إلى ساحة الحصن، وامتطينا خيولنا من مرابطها أمام البوابة، فسألني أحد الرجال:

ـ هل أنت بحاجة إلى شيء قبل ذهابنا؟

ـ لا لا . لقد عوضتموني عن عمرٍ قضيته في الكد والخدمة مع أسياد كثر.

فضحكوا دفعة واحدة، ورمى علي أولهم صُرة زرقاء قائلاً:

ـ خذ هذه.

ـ ما هذه؟

ـ مكافأة أخرى . امرح بها فور وصولنا إلى بيت السيدة سفَّانة.

ثم لكزنا خيولنا ومضينا تجاه حَجْر.

وأثناء الطريق شعرت بآلام في معدتي، فبدى أنني أكلت أكثر من قدر حاجتي، وبطريقة غير جيدة أيضاً، بل بالتأكيد أنني خلطت الطعام في معدتي خلطاً سيئاً، فشددت لجام حصاني وترجلت وسرت سريعاً إلى داخل الوادي لأتغوط مستتراً عن الأعين، لم يفتقدني الرجال، حتى لحقت بهم بعد مسافة ليست بطويلة.

لقد مرت ليال من خروجي إلى عودتي الآن، لم أرَ فيها سَعْدَى، هل فَكّرَت في أن ترسل لي؟ هل اجتذبت من سيدتي سفَّانة خبراً عني؟ ربما.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 10

حين اتقدت شمس الظهيرة، وصلنا إلى باب سيدتي المنقوش بالأشكال الهندسية المحاكية للبيئة النجدية، طرق الرجال الباب، ففتحت سَعْدَى وأشرقت في زيٍّ نجدي بهي، يُغطي خمارها العبق بالبخور نصف وجهها، فتلاقت أعيينا بعد غياب، وجاء صوت سيدتي من خلفها:

ـ حمداً لله على سلامتكم.

قال أوسطهم:

ـ يُبلغك الأعيان تحياتهم، وحملوا معنا شكرهم وتقديرهم على ما قدمته لهم من مساندة بشأن نسخ صحفهم وتجويد كتبهم وتدبير رسائلهم.

فتقدمت سيدتي متجاوزة الباب خارجة:

ـ لهم ما يشاؤون دائماً.

وأشارت بيدها إشارة ترحيب:

ـ تفضلوا إلى حجرة الضيوف.

نظروا في بعضهم وأشار ثالثهم نحو السوق:

ـ لا لا. وراءنا طريق طويلة، سنذهب إلى سوق حَجْر لإنهاء تجارة خاصة بنا هناك، ثم نقفل من حيننا إلى جَوّ.

فلوحت لهم طويلاً بيدها:

ـ رافقتكم السلامة.

عندها رفعوا أيدهم مُودعين ولخيولهم قعقعة سريعة تجاه السوق.

*

بدت سَعْدَى كشمس مشرقة، تغيرت في هذه الليال القصيرة البطيئة إلى الأجمل، رافقتني إلى باب حجرتي، وفور دفعي المصراع الأيمن رأيتها حالكة السواد، توقفت عن عتبتها، والتفت جهة سَعْدَى، وقبضت بيدي على مصراع الباب، وَنَظَرَت في وجهي سريعاً، وبقينا صامتين مبتسمين، ثم كأن شيئاً نبهنا، فقلت:

ـ كيف كنتِ طيلة ما مضى؟ وكيف قضيتي الليالي؟

ـ أَعدُّها.

ـ من هي؟

ـ الليالي. (ابتَسَمَت)

ـ يبدو عَدَّها كان مريحاً.

انخفض صوتها أكثر:

ـ كاد يخطفني.

فتشنج صوتي:

ـ من؟

ـ طيفك المرابط في هذا الفناء.

هَرَشْتُ رأسي متأملاً الفناء وأيام العمل، وأردَفَت:

ـ ما صنعوا بك؟ . ولك؟ . معك؟

ـ أرقّع لهم الصحف، وأخط القراطيس، وأنسخ الدفاتر والرسائل.

ـ كل هذا؟ كلهم ينسخون ويخطون ويُحسنون عمل الأكثر، ويتلقون الإجابات من الآخرين فما الذي اضطرهم إليك؟

ـ الكَتَبَة كُثُر، والخطاطون والنُّساخ قِلّة.

ـ وفي ليلتين نسخت وكتبت وبرعت في صناعة خطوط صحفهم وكتبهم وقراطيسهم كما أرادوها؟

ـ بالطبع. وكتابة أخرى.

ـ ما هي؟

ـ كتابتي إليكِ.

وصمتت عن الكلام، وأَضَفْت:

ـ كانت الأقمار أقلامي، والليل محبرتي، والسهر سطوري.

فمال رأسها وسقطت نظراتها، وطفحت ملامحها بالخجل الشديد، وكي تهرب من سيطرة مشاعرها استجابت لنداء مُتخيل من سيدتي، وأجابت ما لا يُرى:

ـ قادمة يا سيدتي قادمة.

*

أتممت الليلة عامي الأول وثلاثة شهور في العمل لدى سيدتي سفَّانة، بعد شهورٍ طويلةٍ عجاف من عملي لدى الجديسي في جَوّ، الذي لم أنس تقطيب حاجبيه، وعبوس ملامحه، وصرت أطيل الجلوس مساء وسط الفناء بعد أن يخلد الجميع إلى النوم حتى ينتصف الليل، وأنا أقرأ الصحف والرسائل التي كان تدفع بها سيدتي لأنهي نسخها وخطّ بعضها، وفي ليلة من صيف عامي الثاني أولمت سيدتي لضيوف لا أعرفهم، وأمرت سَعْدَى والفتيات بأن يعددن العشاء، فاندلق قدر العشاء المُعد للضيوف الحاضرين واحترقت ذراع سَعْدَى اليمنى، وأطراف أصابعها اليسرى، وتراجعت إلى الخلف لتسقط على ظهرها، وتشرع في البكاء، فوافينها الفتيات وعزمن على تطبيبها كما هو متعارف عليه شعبياً، وبعد وقت كانت قد هدأت حروقها وتركن على ذراعها وأطراف أصابعها لفائف لتقي الحروق ما قد يسقط عليها فجأة، ثم جَلَسَت أرضاً وأسندت ظهرها على قدرٍ كبيرة موكأة فارغة،

كنت أنظر إليها من ردهة البيت، كأنها نائحة في عزاء تكاد تندب إلا قليلاً، فهمستُ لها:

ـ سَعْدَى.

فأدارت رأسها ببطء نحوي.

ـ هل أنتِ بخير؟

كادت تصمت فأجابت بصوت خفيض مريض:

ـ حروق وستزول قريباً.

ورفعت ذراعها المغطاة، وأشارت بأطراف أصابعها المتأذية، وكأن عينيها نجمتان منطفئتان من لسع الحروق التي آذت جلدها الطري.

هدأت روعها بإشارات من يدي وملامحي الهادئة، وفي الوقت نفسه عصبت سيدتي سفَّانة رأسها بلفافة حمراء، وشرعت في إنهاء طعام ضيوفها بمساعدة فتياتها الباقيات.

سُوقُ حَجْر اليَمَامَة 4

مدّت الشمس ضياءها الذهبي، واستيقظت الحياة في حَجْر، وفتحت الحوانيت أبوابها الخشبية، وسرت انتعاشة في ردهات السوق وممراته، وارتفع نداء الباعة وتداخل مع أصوات المشترين والزائرين، ودخلت نساء بخراف وضأن، ونساء أخريات بعدد من الماعز لا يتجاوز العشر، تباريها قافلة مُحملة بالأقمشة والحرير، في إثرها قافلة جلبت صناديق الحبوب والطحين.

دخل هودج عرَّافة اليمامة، محمولاً على راحلتها الصفراء، يتقدمها خادمها ذاته الأسمر القصير الدميم، يركب بغلة صفراء، ومعه صُرَّة خضراء مملوءة جعلها رديفة له، وراح يطوف في السوق حتى توقف ونظر إلي منادياً:

ـ ادنُ يا هذا.

ـ وما شأنك بي؟

فتحت يد العرّافة رواق الهودج ببطء، ليطلّ وجهها الطويل:

- أفي حَجْرٍ جوارٍ يحفظن الشعر؟

- وكيف أعرفهن؟ كما أن الشعر تحفظه كل العرب.

- وكيف أجدهن؟

- هن سيجدنكِ.

فأشرعت رواق الهودج أكثر قائلة:

- اقترب اقترب.

ولأني لم أعي ما أراه اقتربت متأملاً قولها:

- المسؤولية لا يُسقطها صغر سنك.

- لكنّي لست صغيراً.

ضحكت قائلة:

- وكم لك من السنين؟

فقلت بعنفوان وعلو:

- واحد وعشرون.

أدلى خادمها رجليه من بغلته وإذا بهما لا تبلغان الأرض، فروت العرّافة:

- في طريقي مررت بقرى عديدة حتى حاذى هودجي ماء وادي حنيفة، في ليل صامت لم يقطع صمته الطويل إلا نباح الكلاب وحمحمة خيول النجديين في أول حَجْر، وعند الفجر أشرفت دون السوق،

وأوقدت ناري ثم ملأت قدوري بالماء، وصنعت ما تيسر من طعام لي ولخادمي هذا، حتى سمعنا قرقعة أبواب سور السوق تُفتح. . .

قاطعتها بعد أن تقدمت خطوات واسعة وسألتها:

ـ وما أصنع لكِ؟

انكمشت ملامحها من قولي فعرضت علي:

ـ سأجزيك العطاء إن راجت بفعلك عرافتي.

فسألتها بنفاد صبر:

ـ سأفعل ما ينفعك دون عطاء، فما حاجتك؟

فاجتمع الناس حولنا، حتى قاربوا الثلاثين رجلاً وامرأة، ينظرون باهتمام إليّ وإليها، ثم لاحظت ازديادهم حولنا، والعرّافة تسهب في حديثها:

ـ هواء حَجْر عليل، وبيوتها متباينة، وأهلها ذوو حسب ونسب ومكانة.

فاستوقفني سؤال لمع في ذهني:

ـ قبل شهور رأيتكِ هُنا، أين ذهبتِ؟ ومن أين جئتِ؟

ـ ذهبت إلى جَوّ وجئت من جَوّ.

ـ وهل لك أحدٌ في حَجْر؟

ـ لا.

قال خادمها مُتحمساً:

ـ اسمع يا هذا، نحن نحمل تجارة من أحد تجار جَوّ، وتريد سيدتي العرّافة أن تجلس لمفاوضة تجارية مع تجار حَجْر.

فأومأ لي أحدهم بأخذها حيث أرادت، وهرع خادمها ينيخ راحلتها، ويساعدها في النزول من هودجها، والتوت شفتيها على امتعاض:

ـ نحن العرّافات اعتدنا ألا ندخل الأسواق على هوادجنا، إلا أنني هذا الصباح خرقت هذه العادة.

كانت الوجوه تتأمل وهي تنقص شيئاً فشيئاً بعد تململ طويل، فقالت لي قولاً يخالطه الشك:

ـ رأيتك قبل هذا، فتى لمن؟

ـ أنا؟

ـ بالطبع أنت؟

ـ وما يعنيك؟

فانقلبت ملامحها إلى الغضب:

ـ سأستأجرك إن رغبت.

ـ وتستأجريني لأي شيء؟

ـ لتنصب خيمتي طرف السوق، وتستقبل تجارتي التي ستصل الليلة، وتساعدهم في صناعة طعامهم، وغسل ثيابهم، وسأجزيك أجراً كبيراً.

نَظَرَت في السوق نظرة لا مبالية وأكملت:

ـ تجارتي كما هو معلوم في العرافة والعطارة، ولك أن تمضي في العمل معي حتى تنقضي تجارتي وأعود إلى جَوّ.

وأثناء كلامها بانت ثلمة في أسنانها، وبروز لحمي تحت عينها، ومن ثيابها فاحت رائحة كرائحة القصب، ثم دخلت هودجها مستقرة فيه فأقام خادمها راحلتها ووضع خطامها في يده واعتلى بغلته وسار إلى جانبي، حتى تجاوزنا بقليل قنطرة باب حَجْر ذات الرسوم القديمة، فإذا بقافلة محمية بالجنود المنتظرين على رواحلهم في صفوف غير منتظمة، بدى أنها لأحد أعيان حَجْر، والعرّافة وكيلة عليها فقالت:

ـ قطعت هذه الطريق بين جَوٍّ وحَجْر مرات تكاد أكثر من عشرين مرة، نحمل تجارتنا بين مدن اليمامة، وأحياناً نتجاوزها إلى الحجاز والبحرين وأبعد منها.

ثم أشارت للقافلة أن تدخل من بوابة حَجْر، وهي تقول:

ـ في سفري هذا كانت الطريق إلى حَجْرٍ ليست كعادتها أبداً، مزدحمة بالمسافرين إلى حدٍّ جعلني أشك أننا في موسم الحج.

ثم أمرتهم أن ينصبوا خيمتها بجانب خيامهم طرف السوق، ففاضت هواجسي ومخاوفي، وتراجعت إلى الخلف بخطوات حذرة حتى غبت في ضجيج السوق، وصوتها ماضٍ في الحديث.

شَرْقُ مَنْفُوحَة ـ غَرْبُ الخَان 2

أعدو في طرقات أحياء حَجْرٍ بلا توقف، وكلما دلفت طريقاً نادتني أحجاره وجدرانه نداءَ المقاوم، والحاث على الصبر، فأعدو نحو الجهات الواسعة عابراً من تحت النخيل المائلة، حتى توقفت مستعيداً أنفاسي المتلاحقة، فسمعت رجلين:

ـ بيت ابن رباح.

ـ المقابل لبيت سفَّانة؟

ـ هو ذاته.

ـ أمتأكد؟

ـ نعم فهو مسكون بروح الشاعر الأعشى، لأن قدحاً من أقداحه التي خصصها لشرب الخمر قد رُمي فيه، واستخدم فيما بعد مغرفة لسقي العابرين.

ـ وكيف عرفت؟

ـ لقد تتبع موت من سكنوه قبل أن يُترك، والذين تعاقبوا على بابه أيضاً.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم ظل هذا البيت مُضجراً لسكان الحي، أسبوعاً بعد أسبوع، حتى أمر الأمير بسد أبوابه بالطين والجص، وسد نوافذه أيضاً.

ـ كأن الحكاية اختلطت عليك؟

ـ لا لا، كنت أقضي طيلة الليل أسكر في البيت القريب الذي استأجره الجديسي، التاجر الذي يجيء من جَوّ كل شهر ليبيع بضائعه في سوق حَجْر.

ـ أعرفه أعرفه.

ـ كنت أسمع الأصوات حتى انقطعت تماماً بعد أن سُدت أبواب البيت ونوافذه.

ـ أكانت لك علاقتك قوية مع الجديسي.

ـ اختارني وكيلاً له على تجارته هنا، وكان يرسل لنا الخبز والفاكهة والتمر والدخن، لقد اعتاد زيارة امرأة في البيت الملاصق، كانت زوجته سراً، حتى أنها حين وضعت ولداً، لم يَرَ هذا الولد أباه إلا مرتين أو ثلاث، فكبر هذا الولد، وصار يجلس مع أقرانه في حانوت التمور يلهون وينظرون في الناس، ويتسكعون على ضفة وادي حنيفة،

ويترصدون الطيور بالحجارة، فخشيت أمه أن يكون عرضة للصوص أو السباع، فأمرتني أن أكفهم عن اللهو على ضفة وادي حنيفة.

ـ يا أخي ماذا يريد الجديسي بهذا الزواج السري؟ هل يريد أن يُتهم الولد في نسبه؟

ـ لا أدري، ما أعرفه أن زيجته حين تمت من هذه السيدة اختفى عن الأنظار فجأة، ولم يعد يُعلم عنه إلا في السوق كل شهرٍ أو أكثر.

ـ علمت قبل البارحة أن ولده هذا قد مات بالحمى بعد أن لدغته أفعى وهم نائم في فراشه، حين ارتفع صراخه فجأة لتقفز أمه وتنفض فراشه سريعاً لكن بعد فوات الأوان.

ـ نعم نعم، دفناه قبل أسبوع، ورفعت المرأة شكواها ضد الجديسي إلى الأمير، وعلمت أن دارة الإمارة أرسلت في طلبه، ولم يجيء ظناً منه أن الأمير يضمر له الشر، فصدر أمر بالقبض عليه في أقرب زيارة له إلى السوق، وتسليمه للقضاء.

ـ وحصل ذلك؟

ـ بالتأكيد، لقد جاء ضحى الأمس، بعد شهرين من آخر مرة، وحين دخل السوق، وافته جماعة من جند الأمير واقتادوه وقافلته إلى دار الإمارة، وصودرت بضاعته ومُنحت للمرأة، وكتب القاضي حكماً عليها بتعويض زوجته عمّا لاقته، ولها الخيار في البقاء معه أو الانفصال عنه.

ـ وما اختارت؟

ـ بعد أن عُوضت ببضاعة كاملة بقافلتها، اختارت أن تنفصل عنه.

ـ هذا أفضل لها.

ـ ودرس جيد للجديسي، كي لا يعبث بالنساء.

بقيت استمع إلى حوارهما وأنا أتفجر غيضاً وحرقة في آن، حتى هدأ صوتاهما ثم سارا يتهامسان داخلين زقاقاً يفضي إلى بيت سيدتي سفّانة، لقد شعرت بالندم على كل عطاء قبضته من الجديسي، وعلى كل عملٍ خدمته فيه، وعلى كل كدٍّ استفادت منه تجارته.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 11

في مساءٍ يقطر صمته، دخلت سيدتي سفَّانة سريعاً، وراحت ومن خلفها سَعْدَى والفتيات يطفن الحجرات ليتأكدن أن الصناديق التي أنزلها الفتيان أحصيت كما يجب، عدا واحداً لم يصل، حتى دخل فتى منهم يحمل صندوقاً عليه زخارف وخطوط لافتة محكمة الرسم، وضعه في حجرتي ومن ثم أغلق الباب حتى خرجت سيدتي مصفرة الوجه قائلة:

ـ أما أمرتك أن تجعل أحدهم يساعدك في حمله؟

ـ نقله معي حتى بعد الباب بخطوات، ثم أكملت حمله لقدرتي عليه.

ثم دخلت حجرتي وفتحت الصندوق، لتظهر صحائف وقراطيس وكتباً قد صُحفت تصحيفاً جيداً، وطروساً مزخرفة الأطراف، وأخرى لامعة، نسخت بخطوط واضحة، وقالت وهي تلمسها مراراً:

ـ ورُدت الأمانة إلى صاحبتها.

فأمرتي أن أذهب وأربعة من فتيانها إلى السوق، وأن أنقد صاحبة حانوت صاغةٍ اسمها يعرب، ثلاث صرر خضراء من الدراهم الفضية، قبل أن تخرج قافلتها إلى جَوّ، خلال ساعات قليلة، بعد أن أُحيطت بجماعة من جند الأمير، ونُحضر صندوقاً متوسطاً إلى بيتها، وحين حمل اثنان من الفتيان الصندوق وحفّهما الآخَرَين، ثم هممنا بالعودة من حانوت السيدة يعرب؛ أوقفتني قائلة:

ـ أُنقل لسيدتك سلامي، وأوصل لها هذه الجرّة هدية.

وعبرت عتبة باب بيت سيدتي أحمل راكعاً جرة عسل التمر الثقيلة، فسقطت قطرات متتالية على عنقي وكتفي، وانحدرت خيوطٌ ذهبيةٌ على الأرض، وانحنيت قليلاً فسال عسل التمر على صدغي وخدي، فضحكت سَعْدَى وصاحباتها، والعسل يتدفّق حتى استويت واقفاً وابتعدت عن النقع الذي كان من انسكابه، لقد فاحت ثيابي برائحته بعد أن ابتلت منه، وقطعت ماشياً حتى حُجرة سيدتي، وبينما أن على هذه الحال حتى شعرت بألم يعضّ ظهري وظننت أني سأسقط.

*

في ليلة من أول الخريف، وبعد غروب الشمس، أثثت سيدتي فناءها، واستأجرت مجموعة من المُغنيات الشهيرات في اليمامة، وأحيت ليلة خاصة احتفالاً بنجاح قوافل تجارتها هذا العام، ولم تتوقف فناجيل القهوة عن الدوران على الحضور من خاصتها، حتى أُحضرت جِرار

كبيرة من اللبن والعسل ذات حدود مزخرفة، وأعناق مرصعة بالنحاس اللامع، وبدأ الغناء والرقص، وكلما فرغت قدحٌ أُترعت فوراً، وكلما أشار أحد الضيوف بالاكتفاء من الشرب، أخذت الفتاة قدحه وملأتها ثم ناولته إياه قائلة:

ـ إنه نخب سيدتي سقَّانة.

فانتشيت أنا وسَعْدَى ومعها أخريات، وانخرطنا نرقص مع الراقصين، حيث المغنية بصوتها العذب تغني قصيدة انتقتها من شعر أعشى اليمامة:

مُبَتَّلَةٌ هَيفاءُ رَودٌ شَبابُها
لَها مُقلَتا رِئمٍ وَأَسوَدُ فاحِمُ
وَوَجهٌ نَقِيُّ اللَونِ صافٍ يَزينُهُ
مَعَ الحَليِ لَبّاتٌ لَها وَمَعاصِمُ
وَتَضحَكُ عَن غُرِّ الثَنايا كَأَنَّهُ
ذُرى أُقحُوانٍ نَبتُهُ مُتَناعِمُ
هِيَ الهَمُّ لا تَدنو وَلا يَستَطيعُها
مِنَ العيسِ إِلّا الناجِياتُ الرَواسِمُ.

رأيت وقتها سيدتي مُترنمة طَرِبَة، تتمايل في جلوسها، وتلعب بيديها فيشع تطريز أكمام ثوب منيخل الزاهي شديد الاتساع، والمصنوع من قماش التُّل المنقوش، أشهر ملابس النساء التقليدية في نجد، وكلما

فرغ قدحها أومأت لأي من فتياتها كي تملأه، رأيت سَعْدَى ترقص بخفة على البساط السميك، ورنين خلخالها المستدير على كاحلها الأيسر يقع في القلب وقع المطر على الأرض العطشى، والتماع نحرها السّافر يضيء ساحة الحفل، تقفز من نظراتها نشوة الأنس وتتمايل بمشاعر الرقة والمرح، تزهو في ثوب مسرّح أحمر حريري مطرز بالذهب، ممسكة بخمار يعطّ بالبخور يتموج إلى بطنها، وفجأة عاد إلى سيدتي عبوسها، فأمرتنا بالوقوف وخدمة الحضور، فاصفر وجهانا وبدا الارتباك واضحاً علينا.

كانت ليلة مشحونة بأغانٍ مُطربة، وأقداح مُترعة، وأحاديث صاخبة وضحكات ماجنة، وأجسام ترتطم ببعضها من نشوة الرقص، ومشهد صاخب انكشف عن تقاطيع أنثوية ملتهبة بكل تجلياتها، نحور بيضاء كشموس متوهجة، وأعضاء ترسل فتنة عطرها، نجدياتٌ يخفقن بأثوابهن الشفيفة كالحمام، وظفائرهنّ الليلية تتدلى سَلِسَةً على أرداف ممتلئة، وأكفّهنّ المُشّعة تهدهد صدورهنّ المشرئبة، وعيناي الصغيرتان المندهشتان تحملقان مسافرتان في أسرار ليلة المتعة، المختومة بالسامريّ النجديّ المفعم بالنشوة:

"يا رجم ما مَرّوك الاضعان حوَّالي

ما شفت معهم جادلٍ فيه ماريّه

ماريّته يحط فالسّاق خلخالي

ومنقشٍ احجيّجه للهواويّه
يا شاري مني عشيرٍ بَرَى حالي
ابرخصه للي يجيب الثمن ليّه."

تلك الليلة أبطأت منشغل البصر في امرأة من ضيوف سيدتي وهي تطبع قبلتها السريعة على جبين رضيع، وتهمس في أذنه بصوت حنون:

ـ سأغضب منك إذا لم تشرب الحليب، ليقوى عودك، وتنمو أكثر.

فقربته إلى صدرها، ثم ألقمته ثديها الأيسر، فتلقَّفَه الرضيع سريعاً كالظامئ بعد طريق رافقها الجفاف، ومضى يعبّ من دفء ثديٍ تدفق حليبه كينبوع انفجر بعد طول انحباس.

غير بعيد كان الفتيان والفتيات يُحضّرون ويُجهّزون بحماس كبيرٍ مكاناً لطعام الضيوف، بعدها نهضت سيدتي فنهض الجميع خلفها، عدد ليس بالقليل، توزّعوا على مائدة طويلة تحمل من كل ما اشتهته النفوس وطاب لها من اللحم والبر واللبن والفاكهة، وما أن أقبل الفجر حتى غادر الضيوف بيت سيدتي، وتبعهم المغنون والراقصات، وهم يتعثرون في قهقهاتهم الثقيلة.

وفي ضحى النهار التالي، استيقظت ورأسي ثقيلة، كأنها بثقل صخرة، فتناولت مع الفتيان ما أعاد قوتي، واستقبلتنا سَعْدَى بقهوة زكية غذتها فوق حطبٍ أشعلته في قلب الفناء، ثم أرسلت النار في بطن الموقد،

وقربت العجين والحليب والماء، وشرعت تخبز، ففطنت حين رأيت وجهها متعباً وعينيها شاردتين.

ومع ارتفاع الشمس أكثر، ارتفعت من فناء البيت المجاور القريب، تلاوة نجدية جليَّة الشجن، كان الصوت يقرأ الآيات وهو يلمس قلبي لمساً رقيقاً، حتى أيقظ حواسي كُلّها:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

وجلست كطفل صغيرٍ أُنصت كما لو أني أسمع القرآن لأول مرّة.

غَرْبُ عَارِضِ اليَمَامَة

ما أن ابتعدت الظُّعون عن حَجْر، حتى برزت في البعيد أطياف تعتمر عمائم صفراء، كأنها أشباح راكضة نحونا، تمتطي جياداً حمراء، ومن خلفها أطياف لموتى سالفون يسيرون مشياً على الأقدام، وآخرون راجلون، وآخرون يرافقون القوافل.

رفعتُ حَجَراً بعد أن هبت نسمة شرقية بعثت الروح في سعف النخيل وحركت مزاج النهار، وجرت في الأرض جرياً عجولاً، هناك خرج الفرسان والصبيان والنساء الحسان، يغنون ويلعبون ويتبارون بالسيوف والعصي والحبال، وكأنهم استجابوا لنداء الجمال.

وفي سهل ناعم قرب سفح العارض، وبعد أن هدأ جمر الظهيرة، ونامت نار القيلولة، وأعتقت الأرض من لهب فيحها، جدَّ الرُّعاة حول قطعانهم، يتقاسمون التمر والدقيق، ويتراشقون بالفُكاهة والمزاح، ويتلذذون بالمرح عند المرعى حتى برز الغروب وكأنه أصابع حارة

تُحمّم رأسه، ثم انزلقت كالسيل على منحدراته وتعرجاته وحجارته، وسالت العتمة في الأودية القريبة من العارض.

نزلت الوادي، وسرت في العراء المغطى بصغار الحجارة، حيث أخاديد برسوم مختلفة اتخذت سبيلها في الأرض، وعلى أطرافها مناقع تجمّع فيها ماء المطر بعد موسم مطير سخي، وكأنه شق لنفسه منافذ سرية بين الروابي مروياً الأرض الظمأى.

أنخت بعيري قرب رابية صغيرة، وتركته يجترّ ورقبته الطويلة تروح شمالاً وجنوباً، ففوجئت ببئر هناك، وقوافل كثيرة أناخت حولها، وفوق رابية شمال عنه تتزاحم القطعان، كانت القوافل كقبيلة، نجديون ذوو أجسام نحيلة ووجوه تعبه، من دونهم رهط يعتني بالرواحل والهوادج ويطوف عليها بالطعام، ورهط آخر يقف صفاً على البئر لجلب الماء، وعلى الرابية رهط أيضاً يتحلقون كأجرامٍ صامتين لا يتحركون.

غير بعيدٍ نجديّات حِسَان، بثياب مستمدة من الصحراء والنخيل، وقفن على ضفّة وادي حنيفة، بعد أن ملأن قربهنّ، وحشين مزاودهنّ، وربطن حطبهن، ورحن يودعن القافلة وهي تدخل حنجرة الغبار، متوغلة بين هضاب الرياح، وأُنوف إبلها تسرع باتجاه الشمس.

فجأة تنفست الريح، وتفرقت الجماعات عن البئر، وانفضّت، هناك تزاحم الناس جوار الرواحل، فعلا من بينهم صوت رضيع يرفض ثدي

مرضعته، وظَلَّ يصرخ ويحرك يديه في الهواء، ويضرب بعقبيه الثرى، فناولته المرضعة مرضعة آخرى بجانبها، فتولت دهن جسمه الطري بزيوت الأعشاب حتى توقف عن البكاء مع أول قطرات الحليب، ليلتقم الثدي ويرضع في حماس، ضحكت المرضعة قائلة للأخرى:

ـ من يولد في نجد تولد صحراؤه معه.

وفجأة هدأت الريح، فخرج من بين الرواحل شيخ نيِّر الوجه طويلٌ بارز الوجنتين، ونادى في الهوادج:

ـ سَعْدَى، هاتي الدلاء لنسقي.

بندائه كأنه قرأ ما خُط في صفحة قلبي، فتذكرت حين كانت سَعْدَى تلفني بدفء نظراتها، وأنا أرفعها عن خيبة الأمل، فكلانا بضاعة عرضت في النخاسة، وإن لم نكسد، لكننا نبقى في قاع الحياة، حين تروح من ليلتها وقد خامرها شعور الوحدة، لأجاذبها الشعور ذاته كطريدتين نهشتهما وحوش الفلاة، وأحالتنا أنيابها الحداد إلى جيفتين مطروحتين على طريق بلا عابرين.

لا تملك سَعْدَى ما تقدمه لي، ولا عندي ما أقدمه لها، وما عسى خادم مثلي سيقدم؟ أحلاماً فقط! أم أبواباً لن تفتح؟ أم ظنوناً خضراء واهية وزائفة، كذلك سَعْدَى تملك ذات الظنون والأبواب والأحلام.

كثيراً ما سارت أقدامنا في طريق واحدة، من غير أن تلتقي أناملنا، أو حتى تتلامس أهدابنا، هل أحبتني سعدى فعلاً؟ هل أفصحت لها بحبي؟ ربما.

علمتها الغناء، وعلمتني كتابة الأشعار، أخبرتني أنها كانت ترعى الأغنام في منفوحة، وهي صبية، وحين ينتصف النهار وترسل صحراء نجد سياط حرّها، تستظل بشجرة سدر أو نخيل كثيف. تحيط بها رؤوس الأغنام، فتكافح عطشها شاربة من ماء قربتها ثم ترش وجهها الطري بقطرات نقية، مُلاعبة بعدها صغار الأغنام.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 12

عزمنا الخروج في قافلة محملة غداً، من كُبرى قوافل سيدتي.
خرجت من السوق إلى بيت سيدتي لأودعها وسَعْدَى، فألفيت الفتيان والفتيات لا يتحدثون البتّة، ورأيت سَعْدَى غائبة الابتسامة، متلاشية الملامح المرحة، ذاوية القد، وفي دمها قد استيقظ المرض اللعين، رأيت أجفان سيدتي ثقيلة، متراخية على كرسيها، فانتبهت إلى كَدَرٍ قد طاف بالجميع، فاقتربت وجلست قريباً منها:
ـ ممَّ تشكين سيدتي؟
أرتني وجهاً شوهته آلام المرض، وأرسلت من صدرها أنّة بطيئة، ثم أجابتني دون أن تنظر إلي:
ـ لا أعلم، وكأن حمّى دبّت فجأة في عظامي، ولا أريد التحرك من مكاني خشية أن يسرع لهيبها.
واستدركت بصوت هامس، وكأنها لا تريد أن تُسمعَ غيري:

ـ خشيتي الكبيرة على الفتيان والفتيات، فليس لهم إلاي.

تمكن الصمت من أفواهنا، وقبض السكون على حركة أطرافنا، أخذت أفرك جبيني محتاراً وسيدتي تترنح في نوبة السعال حتى التفتت إليّ:

ـ ادنُ.

دنوت حتى مسّ رأسي صدغها فقالت:

ـ كلفت أحدهم في دار القضاء بتدوين صحيفة ستجدها عنده فور عودتك من هذه القافلة.

ـ أمدك الله بالعمر الطويل سيدتي.

ـ لا تنسَ. خذها منه فور عودتك.

فرفعت يدها الضامرة، ذات العروق اليابسة، ونقرت برأس أنملة سبابتها اليمنى جبينها:

ـ الويل هنا، إنه شرس وعنيد.

وأردفت بآهةٍ بطيئة متقطعة.

كنا حولها، رهط فتيان وفتيات، نلتف التفاف السند والمعاون، كانت مطروحة على كرسيها، هشّة ومهزومة، وعيناها معلقتان في السقف، بقي منها عظم وجلد رقيق، ملامحها مطفأة، وجفنان لا يرمشان، ويدان جافتان ترتجفان.

لا شيء منها عدا الجسم الساقط في فم المرض، والسنين التي يرزح تحتها، تسعة وسبعون بالتمام والكمال، أحاطت بها حياة مليئة

بالاكتشاف وجذوة الحركة، والشيء الوحيد الذي لم يهرم أو يذبل هو ابتسامتها، وذاكرتها التي لم تعلكها أضراس الهرم القاسية، ولم تمسسها مخالب المرض، فها هو صوتها الواهن يقول:

ـ أشعر بدنوّ أجلي، أشعر به يتحسس أطرافي ويشتم عظامي.

تكدست في حنجرتها صرخاتها المبحوحة، فافترس النشيج أعضاءها، وخاتلت التجاعيد ابتسامتها البيضاء، عندها شَعَرَت بالخَدَرِ يقرضُ أطرافها.

جَـوُّ اليَمَامَة ـ سُوقُ الخِضْرِمَة 2

ثلاث قوافلَ وُصِلت بخطام واحد، هي أضخم قوافل سيدتي سفَّانة، رُفِعَت الراية النجدية على ثلاثة مواضع منها، فيها عشرات الرجال والفتيان، يحفها جند أمرهم لها أمير حَجْر، لتسلك الطريق إلى جَوّ.

وحين أقبلنا عليها عند الغروب حملت الرياح إلينا سحر بساتينها المشحونة بطعم تمرها، وعذوبة ينابيع مائها، فأنخنا عند بابها، ودخلناها مَشْيَاً، حاملين ما خَفّ من متاع إلى أن لاقانا بعض سماسرتها، وحَمَّالُوها، فانتخبنا أحدهم ليشرف على دخول القافلة، وتنظيم صناديق البضائع، عندها خالطت قلبي وجوه وأصوات الناس في جَوّ.

حوانيت مزدحمة متجاورة، وأناس يجرون حميرهم، وسقاؤون يقدمون الماء، وحَمَّالُون يعبرون من كل جهة، وبُسطٌ كثيرة متناثرة وسط السوق، وبباب كل حانوت يُلوّح البائعون ببضائعهم:

جزارون . بائعو عطور . مساحيق . حبوب . قفاطين . أعلاف . طحين . تمور . عطارة . أدوات.

نادرة تلك القرى والمدن التي اجتزت قناطر أبوابها، وهرولت داخل أسوارها، وأنا معجون بالحنين إليها، كذلك فتحت لي جَوٌّ ذراعيها، من بين آلاف قوافل المسافرين والحجيج العائدين والعابرين إلى ديارهم.

تجاوزنا باب السوق، حتى وصلنا نائب العامل على السوق، فأدخلنا حُجرة مفروشة ببسط من الصوف، وألقينا متاعنا القليل، وسألناه عن حمام، فأخذنا إلى مكان شرق السوق، بلغنا حينها حماماً من حماماتها التي بلغت العشرات، فمضيت اغتسل كمن يريد أن يقتلع تعب الطريق من ظهره وأرجله وأطرافه، أشرت إلى الخادم أن يُدرِّم أظفاري، ويقص شاربي وجزءاً كبيراً من شعر رأسي وشيئاً من ذقني، بينما تُغسلُ عمائمنا وثيابنا.

وَصَلَت ساعتها قافلة بوابة جَوّ عائدة بعد أن أفرغت بضائعها في سوق حَجْر، كانت قد تحركت وراءنا بساعات، ودخلت سوق الخِضْرِمَة، فانفصل منها أحد الرُّسُل، وراح يركض في السوق باحثاً

عني، في الحوانيت، والممرات، والساحات، وحين وصلني مال علي وعانقني، ثم مدّ إلي طرساً مطوياً في صحيفة خشنة ذات أطراف رطبة، ففتحتها، فإذا هو خطّ سَعْدَى:

الحمد للذي سيَّر الرياح، وأجرى الأنهار، ومدّ الظلال، وأسرى الخير إلى عباده، وأعطى وعطاؤه عظيم، وابتلى وابتلاؤه رحمة وبركة.

اِعلم يا أبا النجاة، أني غفرت لك هجرناك الروحي، وصبرت على كَيَّات انشغالك البدني، اكتبُ لك رسالتي هذه بيدٍ مرتعشة من الألم بعد أن انقضَّ المرض على عظامي، وَسَرَت حُمّاهُ في دمي، وَبَسَطَ قوته في لحمي، وتَوَلَّجَ عروقي وعَضَّ أطرافي، إني أرى الرحيل قد أوشك، والحياة قد قصرت، وخشيتي أن البعيد لن يعود، وأيام المرء لا تزود، فأسرع وأكرم عيني برؤيتك قبل أن يُجهز المرض علي، فعمر تلاقينا كان شهوراً، وعمر ودادنا كان عمراً بأكلمه، تناهشته ضباع الحياة، وَرِقُّ العمل، وتقلبات الحال.

اِعلم يا أبا النجاة، أنك ملكت فؤادي، وركضت إلى واديك جيادي، وطارت آمنة في سمائك أسرابي، وسارت في بساتينك قطعان أيامي، وأنت الغارق في شغل الرحيل، والمسرع إلى الكسب القليل.

انسلت دموعي وأنا أقرأ السطور النازفة من خطها، وحرارة العبارات المتتالية في رسالتها، وحال الصمت الطويل بيني والرسول، وحين رآني خائر الملامح، استأذنني:

ـ أظنني أوصلت الأمانة كما حُملّتها، وعلي أن أدرك عملي في السوق الآن، استودعك الكريم سبحانه.

فاستدار مُهرولاً في ضجيج السوق، رافعاً ثوبه إلى نصف ساقه، ومُلوِّحاً بيده الغليظة مُنادياً أصحابه في القافلة.

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 13

شارفنا حَجْراً بعد أيامٍ ثلاثة ونصف ليل من السير المتواصل حتى استدارت علينا عاصفة داكنة، سافرت من كل الجهات، فاستلب نظري سرب من الغربان، كبيرة الأحجام تحوم حول أسوار حَجْر، عطّت رائحة الثرى دبقة من سيول مطر البارحة، كانت القافلة تخوض في الوحل الثقيل عاجلة دون توقف، وأنا على راحلتي أدعو الله ألا يريني فجائع لا يقوى عليها قلبي الصغير.

أنخنا بين السوق والمسجد الجامع، فهبطت عن بعيري وهرولت إلى بيت سيدتي سريعاً، لأجد سَعْدَى تئنُّ على فراش المرض، أما سيدتي فقد أبلغني الفتيان أنها ماتت يوم سفري وهي على كرسيها، رأيتهم في حالٍ منكسرة، وقد مزق البكاء أفئدتهم، وما أن رأينني الفتيات حتى أخذن بعضهن وانصرفن يبكين، وكأن رؤيتي بعثت حزنهن على سيدتهن.

ماتت سفَّانة، سفَّانة التي قدمت الكثير لدار أمير حَجْر اليمامة، من ألوان الطهي والعون الخَدَمِي لمطبخه وحاشيته، سفَّانة التي ملأت حَجْر بل ملأت قُرى اليمامة كلها صدقاتٍ وقوافل ورحيلاً وحركة تجارية، سفَّانة التي غرست فينا نحن فتيانها وفتياتها فتنة العمل، وخوض الحياة، وجعلتنا ندرك معنى الصبر.

دخلتُ على سَعْدَى فرأيتها في حالٍ متدهورة منزلقة في قاع المرض، لم يُبلغها أي من الفتيان والفتيات بموت سيدتي بعد، خوفاً عليها وهي في حال مؤسفة، كنا جميعاً جوارها طيلة الليل، لعلها تفيق في ساعة منه، وكانت الفتيات يقعدنها ليطعمنها وتقضي حاجتها، وفي اليوم التالي عاد وعيها وشيء من عافيتها، فنظرت إلي بعينين فيهما وداع صارخ:

ـ عُد إلى جَوّ.

ـ وما أصنع في جَوّ.

ـ حتى يأتيك نعيي.

فانقلب شعوري بالندم والذنب معاً، ماذا أفعل في جَوّ؟ كما لم يبقَ لي في الخان أحد بعد سيدتي وسَعْدَى، لقد أصبح كل شيء في الخان صامتاً إلا نفسي التي تضج بالبكاء دون صوت.

حَجْرُ اليَمَامَة ـ المَسْجِدُ الجَامِع

أقمت ليلتين في المسجد الجامع قرب السوق، لا شيء غير بَصَري الذي حفظ أبوابه الخشبية بقناطرها الزاهية ذات المصابيح المُتدلية، وقاس زخارفه المتقنة، وتأمل مئذنته المنقوشة حَفْرَاً من كل أطرافها، ونوافذه المقنطرة القريبة من سقفه، حينها قال لي الإمام:

ـ عطائي لك أن يكون الجامع مكان نومك وراحتك، شرط أن تنظم إلى درسي، وتقوم على نظافة المكان حتى تغادره.

كان الإمام الكبير يسير بخطى بطيئة ثقيلة، لا يكاد يثني رجليه، يضرب بعصاه أديم الأرض، ظهره متقوسة، معتمراً عمامة قديمة العهد تغطي رأسه العارية من الشعر.

قرب المسجد الجامع من الغرب، في الركن من ملتقى جدار السوق وباب الساحة، مرحاض أرضي، عند ساقية المزرعة الصغيرة، أراقب في كل مرة أخرج منه كلاباً تعدو على خشخشات العشب، داعسة

التراب لاهثة على طقطقة الحصى، يجلد الشتاء ظهورها وهي تطوف على حظائر خراف تلاقصت دافعة شدة البرد.

حين خرجت من المرحاض في النهار الثاني من إقامتي في المسجد الجامع، أخذتني الصدفة للمرة الثالثة إلى عرّافة اليمامة، ولكن في عراء قُرب السوق، كانت خارجة من حانوت العطار تصحبها جماعة من النساء يلتففن بخُمُرٍ سود، ويضعن على رؤوسهن عباءات فضفاضة، وهي بينهن، يتبعهن خادمها الأسمر القصير الدميم، حاملاً على رأسه صُرّة بيضاء كبيرة، وحين رأتني جمعت يديها، ورفعت من قامتها القصيرة المتقوّسة، ثم أفرغت صرة الأعشاب على الأرض، وأرسلت إلي نظرة تشدها الحيرة، كاشفة عن فم بأسنان يغطيها اللعاب:

ـ أما أخبرتك أن الحظ يسير وراءك؟

ثم أشارت إلي برأسها:

ـ أخذتك سفَّانة أكثر من ولدها.

ـ وهل يرضيكِ هذا؟ أم لا تريه جيداً؟

ـ وتظن دوامه سهلاً؟

ـ لا حظ لفألكِ.

ـ لقد أعدَّت لكَ الأقدار قبراً غير بعيد.

*

عند منتصف الظهيرة ألفيت الإمام يُمرِّضه رجلان أمام السوق، لقد تعطل النطق في لسانه، يقلبانه، ويجسَّان جبينه، ويمسحان وجهه ويده ورأسه، سألتهم:

ـ ما الأمر؟

فأخبراني أنه سقط من فوق بعيره قبل وقت قصير، وهو في طريقه إلى ساحة السوق، فاستأذن الرجلان وحملاه إلى بيته ليلازم فراشه حتى يأذن الله له بالشفاء.

تذكرت أنين سَعْدَى على فراش سقمها، وتباطأت الرسول بخبرها، وما أن دعك فجر اليوم الثالث ظهر الأديم، وأثناء وضوئي من ساقية المزرعة، سمعت فتيان سيدتي سقَّانة رحمها الله يقصدون المسجد الجامع وهم يقولون لبعضهم:

ـ البقاء لله.

مَنْفُوحَة

أوصت سَعْدَى أن تُدفن في مقبرة قريتها منفوحة، حيث طفولتها وصباها، قبل أن تنتقل إلى خدمة سيدتي سفَّانة، فعزمتُ على أن أُشيعها ومُشيعاً معها أياماً خسرتها دونها، مشينا من بيت سيدتي بعد أن نظرنا جميعاً إلى ما تركته من أثر ومال: صحفها وقراطيسها، صُرر دراهمها وجِرارها، ونحن فتيانها وفتياتها.

خرجنا من الخان بنعش سَعْدَى، ثم انعطفنا من ساحة السوق إلى أسوار منفوحة، وتجاوزنا إسطبلات مُتصلة ببعضها لإطعام الدواب من الخيل والإبل والمواشي المرافقة لقوافل التجارة حتى لقينا قافلة تقف عند بوابة حَجْر، وعلى وجوههم غبار السفر والتعب، جالبين بضائع تجارتهم، ومتأبطين صحفهم وطروسهم الخاصة بتدوين البيع والشراء، وقف بعضهم مع المشيعين الواقفين عن أسفل قنطرة البوابة، منتظرين خروج جنازة سَعْدَى، فولولت إحدى الفتيات خلف المشيعين،

وسقطت أرضاً وهي تضرب نحرها، وتمزق جيبها، والجنازة خارجة متمايلة إلى منفوحة فوق رؤوس ضجرة متألمة، محفوفة بالوجوه المبتلة بالحزن قبل الدمع.

وما أن وصلنا أسوار منفوحة سيراً على الأقدام، إلا وقد سبقتنا إليها أنباء قدوم جنازة سَعْدَى، فاستقبلنا نفرٌ من قرابتها وصديقاتها، فعلت أصوات البكاء، وتداخلت عبارات العزاء، وراحوا يعزون من عرفوا منا ومن لا يعرفوا.

بلغنا المقبرة ذات السور الطيني القصير الذي تقف على حوافه غربان يجاورها حمام بري، وأشرعنا معاولنا وأيدينا في حفر قبرها أيسر القبور، فدفناها والشمس موشكة على الغروب، ثم انفض الجميع إلى حيث جاء؛ عدا فتى من فتيان منفوحة تأخر عند القبور فارتفع صوته بالتلاوة النجدية مُردداً إحدى الآيات بصوت مشحون بالحزن والتعب معاً:

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون}

خَان جَلِيلَة ـ بَيتُ سَفَّانة 14

جلست والفتيان والفتيات في حُجْرتي في بيت سيدتي المتوفاة، وخلوت بعدها بنفسي بعد ليلتين لم أنم فيها إلا نُتفاً من الليل، وأنا أُخمد البكاء تلو البكاء، فاتنزعت صحفي وقراطيسي محاولاً أن أكتب ما تمليه علي نفسي المنكسرة، فكان خطي على الصحف هذه المرة جميلاً، ثم فتحت الصندوق الصغير وانتزعت رسالة كانت سَعْدَى قد كتبتها في ليالي مرضها، كان خطها متعرجاً متداخل الجُمل، وبذلت جهدي لأقرأها فجاء صوت أحد الفتيان:

ـ دعني أقرأها عليك.

مددتها إليه وأسند جسمه النحيل إلى الباب، والآخرون جالسون على ركبهم، فقرأ بصوت بين ارتفاع وانخفاض:

الحمد الله حمداً لا أحصيه، والشكر له والفضل له. اِعلم يا أبا النجاة أني نسيت قلبي على كفّيك، وأبقيت سمعي في سحر

صوتك، ونثرت تعويذتي عند خطوات رجيلك، وشققت لك أنهار الدعوات، وصنعت لك أرقَّ الألحان، فأنت المعني بالحب، وأنت خريطة سهري تحت زُرقة القمر، وأنت الوحيد في طرقات طويلة مزدحمة بالآخرين.

اِعلم يا أبا النجاة، أني رضيت بالوصل الشحيح، وقبلت الترنح بعد كأس نظراتك، دون أن أُمزّق ثياب الصبر، أو أُوكئ أقداح نشوتي، أو أُغلق أبواب هُيامي، فلم أظمأ إلا لرؤيتك، ولم اَمشِ إلا لأتبعك.

اِعلم يا أبا النجاة، أن سيدتنا أحسنت مثوانا، وأكرمت مقامنا، وأغدقت علينا حُبها قبل مالها، وأسعفتنا يوم كفّت أيدي الآخرين، وانتزعتنا من رقِ اليُتم وفقدان النسب والانتماء، يوم هَلَكَ أهلنا، وتفرق جمعهم، لتكون هي عمود النسب وبرهان الانتماء، وأيضاً جمعت إلينا فتيان هم أقمار اليمامة وفتيات هنّ شموسها.

وكنا أنا وأنت، شهابان شقّا السماء على فُلْك العذرية اليتيم، فأحسن الله إليك، وأكرمك كما أكرمني برؤيتك، وأنزلك منازل الخير كما أنزلتني منازل الحب والهوى.

بينما هو يقرأ سطور الرسالة كانت نفسي تُقبض مرات ومرات، فجلسنا بعد أن فرغ من قراءته مُطْرِقين صَامِتين، إلا من شهقات تقفز من صدورنا، وأنامل تدعك جفوننا.

*

كان في الخارج ظلام يطارد ما بقي من عبق النهار، بينما في حجرتي الصغيرة المشحونة بنسائم المساء القادمة من نافذتها الصغيرة، كنا كالمتبتلين في محراب التعب، وها هي الآن وقد تركنا بلا شأن ولا أفئدة، ورحلت إلى دار البقاء.

*

يوم انتهاء العزاء أوصدنا حُجرات البيت، ووقفنا كلنا في الفناء، طويت فراشي، وجعلت وجهي جهة باب حجرتي، فودعتها وداع لا عودة بعده، وودعتهم دون قبلات، صرفوا وجوههم مكتفين بنظرات الحزن على سيدتنا، وعلى رفيقتهم المَرِحَة سَعْدَى.

حينها لوّح لي الفتيان بأيدهم وخرجوا من البيت إلى قدر ينتظرهم، عدا واحداً منهم خرج وحيداً مع رجل من أهل الخان على حصانٍ أحمر ومتاعه معه، فتبعنهم الفتيات بعد أن جمعن ما لهن في صُرر، وخرجن ومتاعهن وزادهن مربوطة على بغلتين صفراوين، واختفين في طرقات حَجْر، وتبعتهم سريعاً كطفلٍ نَهَرَهُ الرجال.

مكثت في الخان أياماً، طائفاً بحوانيته وأزقته وبيوته، أسأل إن كان لديهم صحف وقراطيس لمبايعات أو ديون أبرموها مع سيدتي قبل موتها، فأخرج بعضهم ما لديهم من طروس تنام في لفائف وأدراج، ودسستها في صرة خاصة، فسمعت ناعياً من أمام حانوت النجارة رافعاً صوته:

ـ رحمها الله وغفر لها، أطعمت الجائعين، وأسقت الظامئين، وأعانت المحتاجين، وقضت ديون المديونين.

وانخفض صوته:

ـ رحمها الله وغفر لها، أطعمت الجائعين، وأسقت الظامئين، وأعانت المحتاجين، وقضت ديون المديونين.

*

قبل رحيلي بليلة، وبعد أن انقطع دبيب الأقدام الآدمية، انسحبت من دفء فراشي كي ألمس قبور الموتى من الأحبة، وأُحيي المنازل الراقدين فيها، وأجُسَّ تراب القبور.

سريت حافياً ووقفت بباب المقبرة حاملاً مسبحتي الصفراء في يد، وعصاي القصيرة في يد، رأيت حَفَّار قبور لا هم له إلا الحديث عن عدد الموتى الذين دفنهم، وعن الوقت الذي أمضاه في ذلك، دلفت المقبرة ساكن الحركة، فلم أجد أحداً، تَأَمَّلْت، وتحسست بعض القبور بأصابع راجفة، رفعت البصر في النصائب، موتى منذ سنوات،

لا يَعْرِف عددهم أحد، لأن المنايا تدفنهم دون تعداد وحساب لهم، وحين خرجت رأيت شبحاً نائحاً يحرث برؤوس أصابعه جدار المقبرة الطيني، فَسَرَتْ رعشة خوف في جسدي البارد، وانتصب شعر رأسي، ثم فطنت لِكَلْبَةٍ تَتَعَقَّبني مندسةً بين سَاقَيَّ وكأنها تريد أن ترميني أرضاً، فهششتها ثلاثاً لتبتعد داخل المقبرة.

عدت إلى فراشي في غَلَس الفجر، في طقس جنائزي زاده الموت، فَتَكَوَّمت تحت لحافي مُرتجفاً كالمحموم، وصوت يُناديني من البعيد، فارتخت ذاكرتي لفجيعة فقدهم، فرأيت في الحُلم: امرأة لها شَفتين مُتقرحتين، ترقد على أريكة قوائمها من الفضة، وأسفنجها من أجود العهن، وقطرات من ثديها تُثْعَب في فم رضيعٍ كالقمر.

صحوت من حلمي متكأ على مرفقي، مراقباً عرقي المتساقط على ظهر ذراعي، جففت وجهي بخرقة صفراء خشنة، وأرحت صدري بأفأفة صغيرة، سقطت بعدها على فراشي، وشعرت بعرقي وقد برد على صفحة جلدي، بقيت أنظر في السقف وقد كره النوم أجفاني، بذلت جَهْدي لإخفاء دموعي، لكنها انزلقت حَارةً من بين جفنين مُرهقين، وجاء الغد كئيباً دامع العين، مُحْمَرَّ الجفنين، مرخى الحاجبين، تعب القلب وراجف اليدين.

عَلَى طَرِيقِ جَوّ مِن حَجْر

تركت حَجْرَاً ورائي، وأدلجت دون خوف، فالطريق بين حَجْرٍ وجَوّ مزدحمة بالقوافل والمسافرين، وما بينهما قرىً يترقب أهلها مرور القوافل ليبيعوا عليها غلال التمر والحبوب، ويشتروا منها الأقمشة وأدوات الحدادة والنجارة وبعض الجلود.

سقيت الماء من المواضع القريبة في الطريق، فرأيت أخفاف الإبل وقد تركت آثارها كالنقش على الرمال، وبهائم مات بعضها في الطريق، وقد نهشت الوحوش بطونها.

وصلت قافلتنا مع قوافل أخرى إلى بعض الآبار، فأرسل كلٌّ فتيانه مع عدد من سقاة القوافل مهرولين نحو الماء، وألقوا دلاءهم في قلب البئر، وهم يراقبونها تهبط إلى حيث الماء العذب، فإذا كل دلوٍ ثقيلة بالماء وهي في طريقها إلى أعلى، فشرب أحدهم وقال للآخرين منتشياً:

ـ عذبٌ ماؤها.

فقال الثاني:

ـ حقّاً!

وهتف الآخر:

ـ املؤوا قربكم واجعلوا كل دلو طافحة.

*

بلغت جوّاً بعد ثلاث ليال، بعد أن تريضت نصف ليلة قبلها، وتزودت بما يكفي من الطعام والماء، ثم تابعت إدلاجي حتى أنخت في موضع من نواحيها، ممتد دون مرتفعات، ومن حولي قوافل ومسافرين قد وصلوا قبلي، سمعت قعقعة أوعيتهم ورغاء إبلهم، وآخرون عن ظهور بغالهم ينزلون قِربهم وصُرراً مملوءة، بدَّلت ثيابي، وعلقت حاجاتي على راحلتي، وارتديت جديداً.

كانت عودتي إلى جَوّ اليمامة غير ممكنة قبل الآن، تذكرت الفتيان والفتيات الذين تركتهم في الخان، لقد كانت لي أحلام، ولكنها لم تك أحلاماً عظيمة، فيا إلهي كم ابتلعت مني الأيام.

ومع ميلان الشمس وهدوء الهبوب، أنشدت طَرِباً قول أعشى اليمامة:

تَجانَفُ عَن جُوِّ اليَمامَةِ ناقَتي

وَما قَصَدَت مِن أَهلِها لِسِوائِكا

أَلَمَّت بِأَقوامٍ فَعافَت حِياضَهُم

قَلوصِي وَكانَ الشَّربُ مِنها بِمائِكا
فَلَمّا أَتَت آطامَ جَوٍّ وَأَهلَهُ
أُنيخَت وَأَلقَت رَحلَها بِفَنائِكا.

فرأيت على هضاب جَوٍّ وُشُوماً ظاهرة، وسمعت أصواتاً أعرفها قد خطفها الهجر الطويل، فإذا المسافة تزداد قصراً بيني وبينها، ولوَّحت بيدي النحالة لبيوتها، حاملاً إليها بدني المعطوب، وفي رأسي بقية قليلة من ذكريات مريضة مجتزأة.

أنا الآن في مسقط رأسي، جَوُّ اليَمَامَة، أتنفس مداها الصحراوي، وأغازل لونها الجبلي، ولا أطرق أبوابها لأنها بالتأكيد مشرعة لي.

جَـوُّ اليَمَامَة ـ سُوقُ الخِضْرِمَة 3

ساعة دلفت جَوّاً، كان مطر البارحة قد طفح على طرقاتها، وأخفى الحفر وغطى المستنقعات، ورمى البهائم جيفاً على أطراف المداخل، مشيت في أحيائها آخر مرة وأنا ابن عشرة أعوام، حتى اختطفتني يد أحدهم، ووصل بي إلى سفح جبل الدَّام، وباعني للجديسي بدراهم معدودة، بعد أن أوهم كل من جاء لشرائي بأني أسير حرب عُوقب بالعبودية، حتى قَبِلَت سقَّانة بشرائي لتنقذني من شر قاع الرِّق وخدمتي للجديسي.

قصدت سوق الخِضْرِمَة، بعد أن نشرت الشمس ضوءها، وفتحت الحوانيت أبوابها الخشبية، والطرقات غطَّاها قرع نعل القادمين إلى السوق، فآثرت أن أنشغل، فملأت نهاري بالنسخ والخط والزخرفة لدى حوانيت الوراقين، راسماً بالخطوط عقود بيعوهم، ومُدبِّجاً رسائلهم قبل أن يحملها رسلهم، ومُنظماً سطور المكاتبات إلى تجار

القرى الأخرى، ومُعيداً نسخ كتب أحاط به التلف، مُتقاضياً بعملي هذا ثمناً مجزياً يسدُّ حاجاتي ويُعينني على مطالبي، كما تمكنت من صناعة ما يحتاجه النساخون والخطاطون مني في المساجد ودور الكُتَّاب، وتعليم القرآن، وجعلت ليلي بقضاء وتدبير شؤوني، فاستأجرت من الورَّاق حانوته الملاصق، ووضعت فيه فراشي ووسادتي ولحافي التي بقيت من رائحة سيدتي سفَّانة ونشوتي السخية بِسَعْدَى ولياليها العِذَاب، فكنت كلما أويت إلى النوم أسمع عراك الصبية، وقرع نعال العابرين، وتهامس المشترين والبائعين.

طِرْسٌ عُلِّق بشكل مائل على مدخل سُوق الخِضْرِمَة:

تُوفي أبو النجاة النَّجدي أثناء نومه في حانوت الورَّاق الواقع في منتصف سوق الخِضْرِمَة في جَوّ اليمامة، وكان من السائرين خلف جنازته فتيان وفتيات صامتون، لا يُعرف من هُم، شُوهدوا مُطأطئي الرؤوس، وخائري النفوس، ومن دونهم مراهقٌ حنطي مجدور الوجه ومائل الكتف الأيسر، يردد بتلاوة نجدية آية من القرآن:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}.

انتهت

ماجد سليمان
إقليم نجد، اليَمَامَة
صيف 2022 ـ ربيع 2023م

منتصف القرن الحادي عشر الهجري، اختُطِفَ أبو النَّجاة من جَوِّ اليَمَامة، وبِيعَ مَرتين؛ كانت الثانية من سيده الجديسي في سوق حَجْرِ اليَمَامَة، فاشترته سيدة نجدية من فاضلات حي خَان جَليلة أحد أحياء حَجْر، فَعَاصَرَ الاضطرابات السياسية والحياة الاجتماعية لأهلها.

يقع أبو النجاة في حُب إحدى فتيات سيدته، فيكتم كلاهما حُبَّه للآخر إلَّا رمزاً، ومع مرور الشهور ارتفع شأنه عند سيدته حين اكتشفت مهارته العالية في النسخ وأمانته في خدمتها، فأولته ثقتها على صُحُف بيوعها، وجعلته أميناً ومُتَصَرِّفَ قوافلها التجارية.

فمن جَوٍّ إلى حَجْرٍ فحيّ خَان جَليلة ثم جَوّ تُنسجُ تفاصيل إنسانية وحياتية.

ماجد سليمان، أديب سعودي

تَنَوَّعَ أدبهُ بين الكتابة الشعريَّة والروائيَّة والمسرحيَّة والقصصيَّة.

رقم الإيداع ١٠٤٢٦ / ١٤٤٤

ردمك ٨ – ٦٢٢٧ – ٠٤ – ٦٠٣ – ٩٧٨